

# مُسودات

قصص قصيرة

تأليف :

إيتان ياف

# مُسودات

## مُقدمة

لا شيء يرقى إلى المستوى المطلوب , كل ما أقوم به أعتبره محاولة فاشلة , أمزق أوراقها و أعيد البدء من جديد , حتى امتلأت غرفتي ببقايا أفكارى , أمسك القلم و أحاول من البداية و تارة من النهاية أجرب كل شيء و أي شيء , عليّ سأجد ما أبحثُ عنه , ألا يقولون كل الطرق تؤدي إلى روما , أنا أوّمن أن كل محاولاتي تؤدي إلى الفشل , كأن طريق النجاح غير موجود و لا ينوي أن يوجد , يمرّ الوقت و أنا أنزف أحلامي إلى أن أنتهي منها جميعها , سأصبح فارغة و لا شيء أسعى لتحقيقه , ربما سأصبح سعيدة حينها , ربما سأتحرر من قيود الفشل التي تحيط بي من كل جانب , أنا حزينة , الآن .

هل عليّ أن أكون سعيدة , سأحاول حقا , لأن السعادة يمكن أن تتحقق حين نريد ذلك , إنها أمر بيدنا على عكس الحزن , أنا سأحاول رغم ثقتي بفشلي , لما لا تحاول أنت أيضا , أحتاج المساعدة , لا تسألني إياها فأنا أيضا أحتاجها , و كما يُقال فاقد الشيء لا يعطيه , إلى اللقاء إذن , راسلني .

# القصة الأولى

## الجبان

قلب الصفحات وقرأ :

"نظرَ إليها نظرة الحبيب الذي التقى لتوه بحبيبته تُغادر مقهًا بصُحبة رجل ما , ابتساماتهما الخفية تكفيه لاستنتاج الوضع , تبوحُ له بما لا تستطيع الكلمات البوح به , تلك الخيبة في نظراته تجعلها تتجاهله تمامًا , تسيّرُ للأمام , تدوس عليه وعلى كرامته , كما تفعل معظم النساء حين تقررُنّ خيانة من تعلمن أنه أحبهنّ بحق , كلما كنت شغوفًا في الحب , كلما استمتعتن بجعلك تهوي أعمق وأسرع .

المرأة تحب من يعذبها , هذا تعريف الحب بالنسبة لها , إنه قرين الألم , في الحقيقة البشر- جميعهم يستمتعون بتعذيب أنفسهم من فترة لأخرى .

علم أنّ عليه الرحيل لكنه بدل ذلك تمسك بها أكثر , فالرجال يشعرون بمتعة أكبر عند الفوز بشيء لم يكن يخصهم من الأساس , يُحبون تحدي القدر , فعدم امتلاك الشيء الوحيد الذي تمنيته بحق , يكون مثل وصمة عار تذكّل بها نفسك قبل النوم و عند الاستيقاظ .

لن ينساها ما دام لم يحصل عليها ,

لم تعره اهتماما لأنه أحبها .

الحب أمر مروّع , علينا النفور عند ذكره مثلما ننفر عند ذكر مرض السرطان , إنهما نفس الشيء , الاختلاف الوحيد بينهما أن الحب لا علاج له , لأن العلماء تأخروا في تصنيفه ضمن الأمراض و لم يتطوع أحد للبحث في علاجه .

أحببنا أو كرهنا نحن أحببنا , باستثناء الزكام أعتقد أنه المرض الوحيد الذي أصاب البشرية كلها دون استثناء ... "

توقفَ عن القراءة عند هذا الحد , يبدو أن طلابه جميعهم يغزوهم سخط جامح على الجميع و على كل شيء , قلب الصفحات عشرين مرة حتى الآن و فتش بدقة أكبر في كل مرة و لم يعثر على ورقة واحدة تحوي مضمونا سعيدا .

توقف عن تصحيح أوراق الواجب الذي عليه تسليمه غدا لطلابيه , فهو يحتاج راحة من كل هذه الكآبة التي خيمت عليه فجأة .

خرج إلى الشرفة حتى يستنشق بعض الهواء فالجو في الداخل أصبح خانقا , ليست فقط أفكاره التي كانت تضغط عليه , فقد كانت جدران هذه الشقة الضيقة تضغط عليه أيضا و أحيانا تُحدثه عن شجار الجيران الجدد و بذلك أصبح الوضع لا يحتمل حقا , أدرك أنه أحسن عملاً حين قرر الانتقال قبل أسبوع , لقد جهز كل شيء ما عدى طلابه , عليه استجماع ما تبقى له من شجاعة و إخبارهم أنه سينتقل إلى جامعة العاصمة , هم لم يكونوا متعلقين به هو كمشخص , بل كانت أجواء محاضراته وحدها كافية لجعل بعضهم يذرف الدموع عند سماعهم خبر مغادرته , ترجاه البعض للبقاء لكن ما تبقى من شجاعته كانت كافية لدفع خجله و رفض طلبهم .

لم يكن مُولعًا بالعاصمة مثل جميع من كان يعيش بعيدا عنها , كلما كانت ولايتك أبعد كلما كبرت العاصمة حجما في عينيك و كانت أهمية التواجد فيها أسمى , أمر غبي .

بالنسبة لسكان الجنوب يبدو الذهاب إلى العاصمة مثل التقدم بخطوة في الخريطة , أما سُكان العاصمة فهم مستعدون للتقدم خطوة أخرى و لو تبليت أحذيتهم , فقط للوصول إلى أوروبا .

حين أخبر أصدقاءه أنه تسنّت له فرصة التدريس في جامعة الجزائر 1 , لم يصدق أحد أنه حصل عليها بخبرته العلمية و المهنية بل حسده الجميع لامتلاكه واسطة حصلت له على الوظيفة , لا يمكنه لومهم فحتى هو لم يكن مصدقا حين تلقى الموافقة .

بحث عن شقة بإيجار رخيص و قريبة من الميترو , لكن كان سيبدو الأمر مثل الحلم إن حصل على الشقة , قد لا يستيقظ في اليوم الموالي , و حتى إن استيقظ ما الذي سيضمن

فرصة بقاءه على قيد الحياة و قد استنزف كل حظه في الوظيفة و الشقة , لكنه حصل عليها بالفعل .

كان عليه الانتظار لانتهاء عطلة نهاية الأسبوع كي يلتقي بصفه الجديد و قد بدى هذان اليومان سنتين كاملتين بالنسبة له , لم يكن من النوع الاجتماعي أو المحب للخروج و التسكع إلا أنه كره الوحدة و أحب الظلام , كان باستطاعته اغتنام وقته للتحضير لليوم الموعد لكن بدل ذلك فتح حاسوبه اللوحي و أمضى وقته يكتب .

لا يتذكر أول مرة بدأ فيها شغفه في الكتابة , الكتابة ليست مثل الغناء أو الرياضة لا يمكنك الإجابة على سؤال "متى بدأت في ممارستها؟" ربما ستقول لحظة تعلمتها , قد تكون في عمر السادسة و لكن هل هي إجابة حقيقية , هذه التساؤلات السخيفة التي تأتيه قبل النوم و تمنعه من إغلاق عينيه لساعات .

كل ما يتذكره هذا المعتوه هو أنه أحب الكتابة في سن صغيرة جدا , إذا سُئِلَ عن حبه الأول فأول ما سيتراءى في مخيلته تلك هي اللغة العربية , لقد سحرته من النظرة الأولى , مذ تعرف على حروفها و هو لا يستطيع تجاهلها أبدا .

منظر الحروف على السبورة الخشبية خضراء اللون , كُتبت ببراعة بقطع الطباشير ناصعة البياض , لم يشعر بالخوف منها مثل اليوم الذي رأى فيه حروف اللغة الفرنسية , حتى حين كانت تظهر بأشكال مختلفة كانت لا تزال وديعة و يسهل ترويضها .

منذ تعلم الكتابة بدأ في الكتابة , كتب الشعر , القصص , الأغاني و حتى مشتريات البقالة , كانت كتاباته تنال استحسان العائلة , حتى كبر و صارت مهمشة , لم يعد أحد يهتم , هذا الأصح الذي يُقال عن وضعه الميؤوس منه , المكان الوحيد الذي كان بمقدوره التباهي فيه بحبيبته كان في دراسته و تعابيره الكتابية , كل مقال يُقدم له , كل واجب كتابي , كان يبذل فيه كأنه مشروع أوكل له من مديره في العمل , لم يكن ليُضيع هذه الفرصة فهي لا تتسن كل يوم .

كان تصفيق زملائه في صفه يسمع كالموسيقى بالنسبة له , سماع المديح عن شيء تحبه و اجتهدت فيه فعلا كاف لجعلك تموت مطمئنا دون أي ندم , و لكن قوس قزح لا يرى إلا مرات محددة لأسباب محددة و لا يمكنك رؤيته كل يوم .

ما فائدة سماع التصفيق دائما , فهو بدأ يُشككُ في مصداقيته , ليس كل عازف مولع بما يعزفه , حتى ذلك التصفيق أصبح بلا معنى في مرحلة ما و حين شعر بذلك توقف هو أيضا عن تقديم عروضه و خرج بكرامة من المسرح كي لا يتطور الأمر و ينتهي به الأمر بسماع تدمير الجمهور .

لذا هو يتذكر جيدا متى توقف عن الكتابة أو بالأحرى متى توقف عن منح كتاباته هدفا كما اعتاد أن يفعل , آخر ما كتبه لم يكن يتمحور حوله كما اعتاد أن يحشر- نفسه في كل حرف و كل كلمة يكتبها , آخر ما كتبه كان :

من تكون هذه ؟

أول سؤال يخطر ببال الرجل حين يقع في الحب من النظرة الأولى

من يكون هذا ؟

أول سؤال يخطر ببال المرأة حين تبدأ في كراهية شريكها

يبدوان متشابهين ما عدى صيغة المؤنث و المذكر التي تميز كل سؤال

كأن الأمور تكون واضحة للرجل منذ البداية على عكس المرأة التي تعيش فترة من الجهل ثم تبدأ في اكتشاف حقيقته

الرجل يعيش فترة الحب بعينين مدققتين و المرأة تعيشها مغمضة العينين

لا تدري حتى أين هي تضع قدميها الآن

لكن مع هذا تبقى راضية و سعيدة بالوضع لفترة طويلة .

حين قرأ هذه العبارات نهضت الفتاة المعتادة من مكانها و بدأت في التصفيق , ثم تبعها من كان في القسم , ابتسمت المعلمة له بلا مبالاة كعادتها و أخبرته أنه حصل على العلامة الكاملة في خانة التعبير الكتابي لموضوع اليوم , يال سعادته , لم تهمة العلامة و لا تصفيق الجمهور الصغير , قراءة ما كتبه بصوت عالي كان كاف و واف , يُشعره بالشفاء , و أراد جعل هذا الشعور يتخلل كل من قرأ أو سمع أو تلمس سطور أدويته , لم يكن يحلم بكتاب سماوي فالكتب السماوية لا تحمل عيوبه إنها مثالية بالطبع , بل على العكس أراد كتابا تملؤه التناقضات و الشكوك و العيوب , كتاب يجعل القارئ يُعيد قراءته رغبة في استخراج أخطائه

ليُجيب من حيث مفهومه الخاص , ليس كاتباً هاوياً و ليس محترفاً أيضاً إن صح التعبير , فكلاهما ممل حتى النخاع , هو يقيم بينهما , قرر ذلك منذ زمن طويل و لا ينوي تغيير مكان عيشه , يتمنى أن تتفهم زوجته المستقبلية ذلك .

فما فائدة الحصول على جوائز و مبيعات بالملايين من قبل الطبقة المثقفة أو التي تدعي الثقافة لكن أغلب الطبقات الأخرى لا ترى نفسها في كتاباته , كما أن جميع الفئات العمرية تبقى مقيدة و لا تستطيع قراءة عبارة واحدة و فهمها كما أراد .

الكاتب الحقيقي لا يجب أن يخشى. أن لا يفهمه قُراؤه بل يجب أن يجعل قراءه يخشون أن لا يفهموه , كان هذا شعاره .

كيف لكتابه ألا يوجد في رُفوف مكتبات أناسٍ من جميع الأجناس و الأعراف و كيف لا يُعتبر لدى بعض الأشخاص أفضل كاتب قرؤوا له , لا يتخيل الأمر بتاتا .

قالت الفتاة في سعادة لا هو أو هي يعلم سببها : لقد كان خطابك جميلاً جداً .

أعجبها كلامه أو بالأحرى أعجبها انحيازُهُ للمرأة في كتاباته حتى أنها لا تميز بين الخطاب و الخاطرة , إنها طبيعة النساء الساذجة تُحبين من يُدافع عنهنّ بأي وسيلة كانت .

قال مُصححاً : إنها تُدعى خاطرة و ليست خطاباً .

استمرت في الابتسام كأنها لم تسمعه , أبعد عينيه عنها لينغمس في أفكاره مجدداً حتى يرن الجرس ليخرج .

يسير وحيداً كما اعتاد أصدقاؤه وصفه , فحتى و هو معهم يقولون أنه وحيد , ربما الوحدة ليست ذات علاقة بعدد الموجودين حولك بل بعدد الذين يفهمونك , كلما خطر على باله إعداد قائمة للأشخاص الذين يفهمونه يجد نفسه يكتب أسماء أشخاص في الأساس هو من يفهمهم لذا لا داعي لكتابتها و خداع نفسه , رغم كونه لا يُبالي بالأصدقاء لكن وجودهم ضروري كي لا يتحول إلى غريب الأطوار المنبوذ و النكرة , هكذا يبدو من لا يحبون أن يُناققوا بعض الأشخاص تحت مُسمى الصداقة و يفضلون إبقاء نفوسهم طاهرة و تقبُّل الإشارة إليهم كغرباء أطوار بدل ذلك .

لقد تغيرت مشكلاته و حلولها مع تقدمه في العمر , كما زادت ساعات أرقه كذلك , أصبح يُنجز ساعات طويلة من التفكير و التفكير قبل أن يهزمه النعاس في معركة أراد دائما لو يُهزم فيها باكرا بل حتى تمتى لولا يدخل فيها من الأساس .

رأى أناسا يُسندون رؤوسهم على مخداتهم فينامون , هو يحسدهم بشدة , تمنى لو يحصل معه هذا و لو لمرة واحدة , فحتى لو كان في قمة التعب و الإرهاق لا يُشفق النعاس عليه و يشرع في منازلته , ربما يكون عدوه المفضل أو أنه وحيد مثله .

تساءل لِمَا يَسْتيقظ يوميا على ساعة منبهه بينما يستيقظ البعض على صوت أمهاتهم , قد يكون صراخا أو نداء خافتا , لا يهم ما يكون , صوتها هو المهم بالنسبة له .

الإنسانة التي تفهمك أكثر من أي أحد , ذلك لأنها من أحضرتك للحياة , لقد كان قرارها أنها تُريدك أن تُجربها و حاولت ما بوسعها كي تُحبها , بينما هي نفسها تكرهها , هو لم يكن قرار أحد , كان مُجرد غلطة لأم في الخمسين لديها بالفعل خمسة أطفال .

لقد رحلت بعدما أحضرته كأنها سلمته الشعلة ليحل مكانها أو أنها لم تُرد تكبد عناء رعاية طفل و هي في ذلك السن , لا يعلم لِمَا يلومها , في الحقيقة هو لم يملك من يلومه , هل يلوم السرير الذي ماتت عليه أم يلوم جهاز كشف الحمل , ماذا عن السيارة التي تعطلت في طريقها إلى المستشفى , هو لم يملك الجرأة للوم أي شخص لذا اكتفى بلوم الموتى و الأشياء التي اتصلت بها قبل موتها .

لقد كرهه الفستان الذي أخبروه أنها ارتدته يوم ميلاده الذي هو يوم وفاتها , لكنه تجاوز الأمر الآن , مثلما تمَل من أغنية ما بعد تكرارها مئات المرات , تخل عن شعور الذنب الذي ملّ من الشعور به على الدوام , كما سيّم من استشعار الكره الموجه نحوه من جدته , لذا أقنع نفسه أنه ربما كسر أحد صُحونها المفضلة حين كان طفلا و هي لا تزال تحقد عليه من وقتها , لكنه تفكيرٌ غير منطقي فهو كان طفلا هادئا في صغره و لم يدخل في أي مشكلة من قبل بل لم يجرؤ على ذلك فأقل فعل سيء يتسبب فيه سيعود عليه بالشعور بالذنب لوقت طويل لذا من الأفضل الحذر , أما الآن فلم يعد ينظر للأمور بنظرة الساذجة القديمة , لقد اشترى عينين جديدتين لينظر بطريقة أخرى لوضعه العائلي و قيمته , لكنه اكتشف أمرا , لم يكن أحد في العائلة يكرهه , هم فقط لا يبالون ليس إلا , لا يهتمون بك لا يعني أنهم لا يحبونك , هذا ما اكتشفه مؤخرا و هذا ما جعله يُغادر المنزل متأخرا , ليكون في شقة وحده متنقلا هنا وهناك

حتى يجد الوظيفة التي يستحقها , قد يكون تخلى عن حلمه لكنه لم يتخلّ عن المال , درس الأدب العربي و أصبح أستاذا جامعيا في عمر صغير , كان طالبا جامعيا مجتهدا و الأول على دفعته بفارق كبير , إذا درّست ما تُحب لن يكون حضور ساعات من التحصيل العلمي مماثلا لوضعك على كرسي و إسماعك محاضرات طويلة عن تكاثر الذباب كوسيلة للتعذيب .

رغم تحصيله على معدل يكفي لكنه لم يدرس الطب , كل أشقائه و شقيقاته درسوا الطب , أراد التميز , كيف ستميزه أمه في السماء , أراد أن تتعرف عليه من بين إخوته , ربما تكون ميزة له أن جميع إخوته اختاروا هذا التخصص فإن لم يفعلوا لكان أرغم على اختياره إرضاءً لوالده , فكل العائلات الجزائرية تتمنى أن تحتوي على طبيب واحد على الأقل للعائلة .

حان اليوم الموعد أسرع مما اعتقد , مر الوقت أسرع حين بدأ في الكتابة , لم تكن العاصمة بمثابة مدينة جديدة عليه اكتشافها , فكل سكان الجزائر يأتون مئات المرات في حياتهم الطويلة أو القصيرة لهذه المدينة لأسباب عديدة , لذا ليست غريبة على أي منهم حتى أنهم قد يعرفونها أفضل من سكان العاصمة أنفسهم.

استقل سيارة أجرة و دفع الكثير , في الجزائر ليس السياح من يُخدعون من قبل سائقي سيارات الأجرة فهم غير موجودين من الأساس , بل هم المواطنون الذين يتعرضون للاحتيال , ستدفع لهم مبلغا مساوٍ لما ستدفعه للسفر عبر الولايات على مسافات طويلة , الجزائر بلد مجرد من المنطق لن يفاجأ الجزائري حتى لو رأى دجاجة تطير , فكل شيء ممكن في هذا البلد المجنون .

كان عليه التخلص من الكثير من المعوقات الورقية حتى يتسنى له مقابلة صفه , الأمر أشبه بالمعاملات التي تقوم بها عند شرائك لسيارة أو منزل , هو لم يشتري الوظيفة بالطبع لكن عليه ذلك للحفاظ عليها , التملق أمر على الإنسان تعلمه في حياته المهنية , عليهم إضافته في متطلبات العمل مثل مهارة اتقان اللغات .

لسوء حظه بعدما انتهى من كل تلك المعاملات أخبره بعض الأساتذة أنه لن يتمكن من إلقاء محاضراته اليوم فقد اختلطت الأجواء قليلا فالطلبة و بعض الأساتذة في إضراب و هو أمر رائج في المنظومة التعليمية الجزائرية , إنه حق , لكننا جعلناه عادة , ربما لأن انتهاك الحقوق أصبح عادة المسؤولين أيضا .

لم يعر بالا لكلامهم و توجه إلى قاعة المحاضرات الموجودة في جدولته , عليه تجربة حظه أليس كذلك , قد يأتي بعض الطلاب غريبو الأطوار , أو المهووسون بالدراسة أو من يملكون أسبابهم الشخصية للتواجد هناك , مهما تعددت الأسباب فالهدف واحد , هو حضور المحاضرة و هذا يخدمه بالطبع .

دخل و قد كانت القاعة فارغة على عكس أحلام اليقظة التي يراها من حين لآخر , توجه إلى مكتبه و وضع محفظته الفارغة , لم يُحضر- أية أوراق أو أقلام أو أي شيء فهو لم يتأمل الكثير من اللقاء الأول كما يفعل الكثيرون , كل شيء يأتي مع الوقت , و قدرته على جذب الطلاب لن تكفيها ساعتان من الكلام الفارغ عن البرنامج الدراسي .

جلس ينتظر و ينتظر , نظر لساعته عشرات المرات , و بعد مرور ساعة تقريبا , فُتح باب المدرج , من فرط دهشته نهض عن كرسيه و اقترب ليرى من يكون هذا الشخص الذي أنقذه من خيبته في آخر لحظة , كادت أنفاسه أن تنقطع بعدما غرق فيها طويلا , كان خائفا أن يعود مساء إلى شقته و ينام مع كآبته , هي لا تترك لذهنه مجالا ليرتاح خاصة إن أمضى- يوما عصيبا .

كان الشخص مجرد طالبة واحدة لا اثنتان أو ثلاث , دخلت و نزلت بِحُطَى ثابتة متوجهة نحو الطاولة الأولى المواجهة له , جلست و أخرجت دفترا و قلما , بدت غريبة أطوار و من أصحاب الأسباب الشخصية للتواجد , لكن أول انطباع توحيه لك أنها فتاة جميلة , ربما من تلك الفئة المتحدثة بالفرنسية و ابنة رجل مهم , تلك التي تُهاثف أمها عشرين مرة في اليوم الواحد و لديها عدد كبير من الصديقات و جميعهن ترافقنها لأموالها لا إعجابا في شخصيتها المرححة , هكذا تبدو من الخارج , الآن عليه معرفة كيف تبدو من الداخل كي يبدأ في دحض الاحتمالات التي انفجر عقله بها فور دخولها .

سألها عن رفاقها محاولا التخفيف من الجو الغريب الذي خيم عليهما , نظراتها الحادة تلك لم تكن مسالمة لذا أضاف احتمالا , أنها قد تنقض عليه بمخالبها تلك و تشق له رقبتة , و تُكتب عنه الجرائد غدا في فقرة الأحداث , كان كابوسه الوحيد أن ينتهي به الأمر هناك لذا حاول دائما تجنب الأحداث , لكنه لن يستطيع الآن فقد أتى إليها بنفسه هذه المرة بل و انتظرها .

لم تتكبد عناء حتى أن تفتح فمها و تتكلم بل رفعت كتفيها لا مبالية و تابعت التحديق فيه كشخص ينتظر طعام العشاء , لكنه لم يعرف ما يقدمه لها هل من الطبيعي أن يُقدم الدرس لطالبة واحدة .

استسلم أخيرا و قرر الخروج من هناك , توجه نحو المكتب ليأخذ حقيبته و يُغادر لكنها تكلمت أخيرا و سألته :

\_ إلى أين ؟

\_ يُمكنك المجيء المرة المقبلة حين يكون هنالك عدد كاف لأستطيع تقديم الدرس .

\_ لا أريد .

\_ لا بأس إن تغيبت المرة القادمة أنا لا أسجل أسماء الغائبين .. لا تقلقي و اذهبي .

\_ لماذا انتظرتُ كل هذا الوقت إذا ؟

\_ ماذا ؟

\_ كنتَ تعلمُ أنه إضراب و لن يأتي أحد إذا لماذا انتظرتُ ؟

\_ حسنا .. لا أعلم .. ظننتُ أن أحدا سيأتي على الأقل فانتظرته .

\_ و قد أتى لماذا تُريد تركه و الذهاب الآن .

ابتلع لعابه , فقد شجاعته مجددا , يبدو أن أسبابها الشخصية قوية فعلا , هل عليه قول أنه جبان كإجابة , هل هذا لائق , تنهد عميقا و أعاد محفظته إلى المكتب ثم نزع معطفه و علقه , بقي يسترق النظر إليها بينما يعمل جاهدا ليستجمع شجاعته ثانية , حقا على أحدهم اختراع دواء نتناوله حين تخوننا ثقتنا بأنفسنا , في النهاية كل الاشارات في دماغنا سببها تفاعلات كيميائية إن اكتشفنا معادلتها سيمكننا استحضار أي شعور بحبة دواء أو حقنة مثلا .

قبل أن يقول أي شيء بخصوص الدرس سألها :

\_ هل تريد أن أعرف بنفسي أولا أو لا بأس إن شرعتُ في تقديم الدرس مباشرة .

\_ في الحقيقة أنا أعرف القليل عنك بالفعل ..

\_ ماذا ؟

\_ لكن لا بأس إن قَدِّمَتَ نفسك يُحب الطلاب أن يعرفوا القليل عن أساتذتهم فهو أمر يجعل الأمور سهلة عليهم للتواصل .

يبدو أن احتمالية أن تكون قاتلة مأجورة تبدو منطقية أكثر الآن فهي تعرف القليل عنه بالفعل , أبقى تلك التساؤلات عن ما تعرفه حوله و من أين لنفسه , فقد شعر أنها لن تجيبه حتى لو سألتها مباشرة , لذا تابع من حيث عَرَفَ نفسه , أستاذ ...

أخبرها بعض الأمور غير المهمة لأي أحد أن يعلمها , ما الذي سيُفيدك إن عرفت عُمر أحد بحق , إنه أمر بلا فائدة لقوله أو لتذكره , في عالمنا هذا كان علينا وضع مستويات لأرواحنا بدل عدد السنوات التي أمضيناها في هذه الحياة , فلا يهم كم أمضيت حقا بل الذي يهم هو كم اختبرت من الألم , من السعادة و من اليأس .

لأننا لا نشتاق لأعمارنا بل نشتاق لطريقة تفكيرنا قبل تعرضنا لبعض التجارب , بعد تلك التجارب قد نصبح كنزا من الآثار القديمة التي يدفع الناس لزيارتها أو أثارا لا قيمة لها تختفي كل يوم تدريجيا دون لفت أي انتباه أو شفقة .

لم يبدو عليها الاهتمام بما يقوله لذا اختصر ما استطاع اختصاره و شرع في تقديم الدرس .

في المنتصف نفذ صبره , هي لم تكن تهتم , حسنا هل لديها أسباب شخصية حقا , هل أتت لتضييع وقتها و وقته على اللاشيء , لو علم أن الاشباح تستمع إليه على الأقل لاستطاع المتابعة لكنه بدى كالأخرق حقا و هو يدرس شخصا واحدا و حتى هذا الشخص الوحيد لا يعيره أي اهتمام .

اقترب منها ببطء فوجد أنها تكتب بعض الأشياء في دفتر ما , أخذ منها الدفتر على حين غرة و ألقى نظرة خاطفة قبل أن تستعيده .

سألها محاولا تمالك نفسه بعدما لم يستطع قراءة سوى كلمة أو كلمتين :

\_ ما هذا .. إن لم تكوني مهتمة لماذا أتعبت نفسك للحضور .

\_ أنت تعني لماذا أتعبتُك أنت .. أليس كذلك ؟

\_ مهما يكن أنتِ مدينة لي بتفسير .

\_ حسنا كل ما في الأمر أنني أعمل على كتاب ما و هذا المدرج واحد من الأماكن التي تجلب لي الإلهام .. لقد كتبتُ فيه الكثير بالفعل .. لم يكونوا ليسمحوا لي بالتواجد هنا بمفردي لذا استفدت من وجودك .. هل أخطأتُ .. أنا أعتذر .

\_ حسنا فهمت .. لستُ غاضبا لكن كان عليك إخباري بالأمر من البداية .

\_ لأكن صادقة .. الأساتذة الصغار في السن غالبا ما يكونون معجبين بأنفسهم و يأخذون كل حركة من طلابهم أنها قلة احترام اتجاههم كأنهم ينتظرونك على أقل خطأ .. ظننت أنك واحد منهم .

\_ ما الذي تكتبينه إذا ؟

\_ أحب الروايات الاجتماعية .. لذا أكتبها عادة .

\_ حسنا إذا .. سأشترئها حين تصدر لا أحب قراءة شيء بالمجان .

\_ أتمنى ذلك و لكن لا أعلم إن كانت ستصدر .

\_ ألم تعرضيها على دور النشر .. أم هل تم رفضها ؟

\_ الحقيقة .. لا أملك الجرأة لعرضها على أفراد عائلتي حتى .. فكيف أمنحها لدور النشر .

\_ ماذا تعتقدين .. عليكِ المحاولة إن أردتِ بعض النتائج .

\_ هل هذا ما تفعله أنت ؟

ما الأمر لماذا انقلب الأمر ليكون استجوابا ضده , تذكر فجأة أنه ليس أفضل حالا من هذه الفتاة و ليس في موضع يجرؤ فيه على تقديم النصائح أيضا .

تابعت و قد بدى عليها الغضب فجأة :

\_ لقد قرأتُ لك قصيدة كنت قد نشرتها في الجريدة و قد حفرتُ اسمك في عقلي و بحثتُ عن أعمالك في كل مكتبة في العاصمة كما و بحثتُ إن كان لك أي حساب في مواقع التواصل الاجتماعي لكن لم أحصل على أية نتائج .. حين قال الأستاذ السابق إسمك و أضاف أنك قادم لتحل محله ظننتُ أن اليوم هو يوم حظي لذا قديمثُ .. لكنني لم أتصور أن تكون هكذا .. فوجئتُ أن صاحب تلك القصيدة يكون أنت فعلا .

\_ هل أُصبتِ بخيبة أمل أم ماذا ؟

\_ أجل قليلا .. لكن لا دخلَ لكِ في هذا فأنا من رفعتُ من سقف توقعاتي .

\_ آسف أنني لم أصبح ما أردتِه و ما أردتُه .. أجبرت أن أكون هذا الشخص لأسباب معينة .. إن انتهينا مني الآن هلا تخبريني لما لا تقدمينها للنشر ؟

نظرتُ إلى دفترها و جلستُ تقلّب فيه , قالتُ بعد التفكير :

\_ لم أكن أريد أن أدرس هذا التخصص .. أردت أن أدرس أمرا آخر لكن انتهى بي الأمر هنا بشكل ما .. أتعلم ؟ السر.. هو أن لا تملك ما تخسره .. أنا امتلكتُ ما سأخسره لذا لم أستطع المجازفة .. شعرت بالخوف .. خذلتُ نفسي .. أحيانا أتساءل هل كنت حكيمة أم كنت مجرد دجاجة جبانة .. أنا لم أُمنح الفرصة يوما .. لكنني خائفة أني سأضيعها إذا مُنحت لي .. لا أصدقُ أنك تفهمني .. فأنا لا أفهم نفسي. أساسا .. أنا أحاول فقط .. فهمها .. أتساءل أيضا إن كنت أستحق ما أمتلكه .. شعرت أنه لو لم أمتلك شيئا يوما لكان سيكون الأمر أسهل .. لا بد أنني جننت .. فكرت .. إما أن تمتلك كل شيء لذا لن تخسر.. أي شيء و إما أن لا تمتلك شيئا عندها لن تمتلك ما ستخسره أساسا .. هل أنا أفكر كثيرا ؟ هل علي التفكير أقل أم ماذا ؟

كانت أسئلتها تبدو مثل المتاهة في نظره , لم يستطع دخولها و حتى إن تجرأ على الدخول كيف سيضمن طريق الخروج .

لكنه لم يملك مهربا آخر , خسر أمامها من اليوم الأول , يال العار وكيف يُلقي عليه اللوم و قد كان الوحيد , الوحيد في القاعة الذي يستمع إليها .

قال فجأة ما خطر بباله دون تفكير أو تدقيق أو مراجعة , فقط قال لها : كل ما تحتاجينه هو نفسك .. لا داعي للخوف بعد الآن فأنت لن تخسريها أبدا .. مهما جازفت.. إنها الوحيدة التي ستبقى بجانبك مهما حصل..مهما ندمتِ أو ساءت الأمور .. مهما كان وضعك ستكون دائما موجودة .. لا تكوني جاحدة و أظهري لها بعض الامتنان .

\_ ماذا لو قلتُ أننا لسنا متفاهمتين جيدا و أخشى- أنها ستخذلني هي الأخرى مثلما فعل المحيطون بي .

\_ هذا لأنك لا تثقين بها لقد خذلتها أولاً كيف تتوقعين أنها لن تخاصمك بدورها .. إذا استطعت العيش خلال هذه المعركة معها فأنت تستطيعين فعل أي شيء .

ابتسمت فلم يفهم هل توافقه , هل تحتقره أم هي فقط سعيدة .

نهضت فجأة و قالت : لقد انتهى الدرس اليوم أتوق للدرس القادم .

أراد إضافة شيء ما لكنه لم يملك حافزاً كافياً , قد خانته شجاعته كالعادة , نفذت بعد هذا الحوار الطويل , أنفقتها كلها على طالبة واحدة , لِمَا الظلم ؟ لم تكن طالبة واحدة كانت مجموعة من الطلبة و الأفكار المتزاحمة الموجودة داخل جسد واحد .

إنه لا يتمنى تلك المرة القادمة التي تتوق هي إليها , سوف يُصلي و يدعو أن يأتي باقي الطلاب المرة القادمة كي لا يبقى مجدداً وجهاً لوجه مع أفكارها المغربية , لقد غيرت نظرتة لنفسه في لحظات .

حين عاد إلى المنزل مساء لم ينم مع كآبته بل نام مع كتاباته كالعادة , لكن الاختلاف هذه المرة هو أنه توجه في الغد ليُقدمها إلى أقرب دار نشر- , إن كان عليه الدفع أو التوسل سيفعل كل ذلك , فقط يُريد أن يرى كتاباته على ورق حقيقي بدل تلك النافذة البيضاء على حاسوبه , على الأقل , الآن سيكون له أثر , يستطيع من قرأ قصائده في الجريدة عن طريق الصدفة أن يتتبعه .

لقد نسي- أن يسأل الفتاة أي قصيدة قرأت فقد أرسل الكثير في الماضي , لم يساوره الفضول حول أمر ما لهذه الدرجة من قبل , لقد جعلته تلك الفتاة يُحظّم أرقامه القياسية , إذا نجح يوماً ما فسوف يلقي عليها التحية حين يُستضاف في المقابلات الصباحية , لا يجب أن تستهين بكلمة دعم لأحد في بداياته أو في نهاياته , فهو لن ينكر جميلك بل قد يردده أيضاً .

# القصة الثانية

## أسرتي

لطالما سمعنا أن الأسرة هي عماد المجتمع و أن الأسرة هي سبب نجاح أفرادها فإن كانت متماسكة سيكون أفرادها كذلك , لكن ماذا عن أسرةٍ أقل ما يُقال عنها أنها عكس هذه الصفات , كيف سيكون أفرادها ؟ هل سيكونون متماسكين أو منهارين نفسيا ؟ لسوء حظي كنتُ في هذه الأسرة و كنتُ أحاول أن أبقى متماسكة .

قالت المعلمة أنّ لدينا واجبا منزليا , علينا أن نكتب عن كيف نرى أنفسنا بعد سنوات من الآن و ما نريد أن نُصبحه في المستقبل , بعض الخياليين كتبوا عن أحلام غير حقيقية , أظنهم في أسرةٍ متماسكة , تعلموا من والديهم أن ينظروا للمستقبل بفرح و تفاؤل .

استدعتُ المعلمة والديّ لأن ما كتبتّه لم يُرضها , لقد تلقيتُ التوبيخ ذلك اليوم حين وصلتُ ورقة الاستدعاء , لقد ظننا أنّي افتعلتُ مشكلة ما .

حين حضرنا أمام المعلمة بدا غير مهتمين , أبي ظل ينظر لساعة يده كل دقيقتين , فعليه العودة للعمل بعد ساعة و لا يجب أن يتأخر .

أما أمي فكل ما كان يهمها هو سعر القلادة التي ترتديها المعلمة , و أظنها تساءلتُ بينها و بين نفسها عن مقدار راتب المعلمين فإن كان مرتفعا جعلتُ إحدى بناتها تعمل كمعلمة .

قالت المعلمة : استدعيتكم اليوم لمناقشة التعبير الكتابي الأخير الذي كتبتّه ابنتكما .. و قد كان موضوعه بسيطا .. فقط الإجابة عن سؤال كيف سيكون مستقبلي ؟

قال أبي كأن الأمر لا يعنيه , بل في الحقيقة كان الأمر لا يعنيه فعلا :

\_ أنا لذي عمل آخر علي القيام به .. لثُكمل معك أمها إنها تفهمها أحسن مني .

حاولتُ المعلمة إمساك نفسها ثم قالت :

\_ أظن أنكم تظنونها مجرد مزحة .. و أنا كنتُ أظن ذلك أيضا .. و لكن إيمان كتبتُ أمراً جعلني أفكر في والديها .. و حين جلستما أمامي فهيمت أن الأمر ليس مجرد مزحة .. لقد كتبتُ أنها ربما في المستقبل .. سوف تُصاب بمرض خطير أو تُشل أحد أطرافها أو تصدمها سيارة ما أو يصطدم رأسها بالحائط فتدخل في غيبوبة ما أو تُطعن بسكين أو تختنق و تغرق في مياه عميقة أو يقتلها شخص ما و القائمة تطول .. كل أسباب الموت البشعة في العالم وجدتُها في تعبيرها الكتابي .. لقد كانت نظرتها للمستقبل متشائمة بشكل مبالغ فيه .

لم تستطع أي أن تنطق بكلمة فهي لم تجلس يوماً مع بناتها و تحدثت معهم , لم تدري ما كان حلمها حتى و لما كتبتُ بدلا عنه هذه الأشياء .

قال أبي مُحاولاً تلطيف الجو :

\_ يبدو أنها تُشاهد الكثير من الرسوم المتحركة .. لا عليك هؤلاء هم الأطفال يفكون كثيراً ثم ينسون .

قالت المعلمة بعد أن نفذ صبرها :

\_ إن لم يكن يُهمكما الأمر لما لا تدعاني أعرضها على أخصائية نفسية .

قال أبي :

\_ كفى .. إبنتي ليست مجنونة لا تلوئي سمعتها لمجرد تعبير طفولي مستوحى من الرسوم المتحركة .

نهض والداي و خرجنا .

تنهدتُ المعلمة , كان مشهداً مُحزناً بالنسبة لها , لكنها لم تستسلم و حاولتُ إقناع المدير بوجهة نظرها , إلا أنه وبخها و أخبرها أن الأمر لا يعنيها وأن المعلمين مهمتهم هي التعليم فقط و أي أمر خارج هذا الإطار هو ليس من شأنهم البتة .

استقالت المعلمة في اليوم التالي و لم نسمع عنها مُجددا .

\*\*\*

\_ فاطمة إنهضي ..

\_ ما الأمر يا إيمان ؟

\_ لقد رأيتُ كابوسا .

\_ أنتِ ترين الكثير هذه الأيام .. هل شاهدت فيلما مخيفا ؟

\_ لا .. أنا فقط لا أستطيع النومَ مجددا .. أفكرُ بالمعلمة .

\_ نامي يا إيمان نامي .. دعينا ننم .. إن سَمِعنا والدي لن تمضي الليلة على خير .

\_ هل أسألكِ أمرا ؟

\_ ماذا هناك ؟

\_ أنت هنا منذ أسبوعين .. متى ستعودين إلى منزلك ؟

\_ أليس هذا سؤالاً بديها .. كالعادة .. حين يأتي و يعتذر سوف أعود .

\_ لكن هذه المرة تبدين بحال أسوء .. هل ستعودين حقا ؟

\_ أجل سوف أعود لقد استغنيت عن الكثير من أجل هذا الزواج .. علي التضحية .. أليس كذلك ؟

\_ إن كنتِ تظنين أن الأمر يستحق ..

\_ أنا حتى لا أعلم كم أرضًا يملك و كم مقدار المال الذي يحصل عليه شهريا .. لكنني أكيدة من شيء واحد .. هو يملك الكثير فعلا .

كانت أختي فاطمة بائسة تماما , حتى أن بؤسنا كلنا لا يقارن بما تعيشه .

كانت فتاة ذكية جدا , أتذكر أنه يوم أعلنت أنها سوف تترك المدرسة تجمع أساتذتها أمام المنزل , لقد أرادوا من والدي أن يعيدها إلى المدرسة .

إحدى المعلمات التي كانت تحبها كثيرا قالت لأبي :

\_ أرجوك لا تترك هذه الفتاة تضيع ..

أتذكر إجابة والدي حينها, إنه الرجل الشرقي الذي لا زال لا يعي أهمية المرأة و لا يراها سوى آلة لإنجاب الأطفال و طهو الطعام و التنظيف .

قال أن مكانها في بيت زوجها و هي لن تستفيد شيئا من الذهاب للمدرسة .

لقد جعل خمس أساتذة يعودون أدراجهم خائبين .

كان نحيب أختي أقوى من صوت الرعد في تلك الليلة حتى الرعد كان خائفا من بكائها مثلما يخاف الطفل الصغير من صوته , لكن سرعان ما توقفت , إنه تهديد والدي المستمر .

لا يمكن أن أنسى يوم خطبتها , كانت أعين والدَيّ تشع مثل النجوم , لم يكونا يغمضان جفنا أو يمسحان لعابا كان يسيل من فمهما جراء تلك الهدايا التي كانت تدخل منزلنا , فقد أحبّ رجل طاعن في السن أختي , كان ضعف عمرها ثلاث مرات .

ماذا لو لم تكن أختي في هذه الأسرة , ماذا كان في وسعه تقديمه لها كي تقبل برجل مثله , لا يكبرها سنا فقط بل يصغرها تفكيراً أيضا .

لم يكن قد دخل المدرسة قط و لم يتعلم حتى أساسيات القراءة و الكتابة , أظن أن أولاده هم من كانوا يقرؤون له فواتير المياه و الغاز , منهم من كان من زوجته الأولى و الباقون كانوا من الثانية .

أظن أن كل ما يُجيده هو الإحصاء , ليعلم كم رأسا من الماعز اشترى و كم عليه أن يبيع .

لقد تحمل الجميع رائحة الأغنام التي تنبعث من ثيابه , أظنه اعتمدها كعطر دائم له , يمكنك تمييزه من على بعد أمتار , على الأقل كان بإمكانه إصلاح أزراره المتدلّية من قميصه , لم تكن حالة أي مشرفة أيضا لكن على الأقل كان يرتدي ملابس نظيفة , هي نفسها تلك الملابس التي تزوج بها , إنها الوحيدة التي تفي بالغرض لمناسبة كهذه و لكل المناسبات القادمة .

لم تكن أختي في أحسن حال , لقد كانت تذهب للمرحاض مرارا و تكرارا لتتقيأ , أعتقد أن معدتها غُسلت ذلك اليوم .

لم يمر شهر على زواجها حتى عادت إلى المنزل و آثار الكدمات تُغطي كل مكان في جسمها , لقد شوه وجهها الجميل , كيف استطاع التفريط به .

جلست بيننا وقالت :

\_ أنا لن أعود أشنقوني إن أردتم لكنني لن أعود لذلك الجحيم .

اندلع شجار حاد بينها وبين والدي , لم يكن هذا بالأمر الجديد فهو أمر معتاد في العائلة بل سوف يصبح من التقاليد التي علينا إحيائها , و دائما ما ينتهي هذا الشجار بنا جميعا متعرضين للضرب , فحين يشرع أبي بضرب أختي , إحدانا تحاول إمساك أبي و الأخريات ترتمين لحاميتها , بالنسبة لي أفضل الجلوس و التعرض للضرب , لكن مريم الوحيدة التي كانت تُحاول بكل قوتها إمساك والدي و هذا ما يُغضبه أكثر و يدفعه لارتكاب مجزرة جماعية .

قد يتساءل الشخص عن موقف أمي من كل هذا , وكيف سيكون ؟ إنه موقف الأم الشرقية العاجزة , ستقوم بمواساتك بكلمات سمعتها من أمها حين واستها بسبب مزاج والدي المتقلب , عودي يا ابنتي و اصبري فليس لك سوى منزل زوجك و الزوجة الحقيقية عليها أن تتحمل , إنْ عُدنا إلى مؤلف هذه الكلمات الأول فسنجد أنها امرأة بالتأكيد , و الأكثر من ذلك أنك ستجدها لم تعاني في زواجها قط , لكن مع هذا اعتبرت نفسها قدوة لنصح النساء البائسات في حياتهن بسبب الرجال .

حين تأكد الشيخ الطاعن في السن أنّ أبي لا ينوي فعل شيء و لا يُعارض تلك الكدمات و الخدوش و الإهانات التي تتعرض لها أختي أحكم قبضته أكثر .

فبدل أن تأتي أختي مرة أو مرتين في الشهر أصبحت تأتي كل أسبوع و أحيانا تأتي لتمكث لأسبوع .

المنزل كان مهربها الوحيد و أعتقد أن طبخها اللذيذ الذي يتجاوز طعام أمي في لذته كان يخفر لها هذا فأبي لم يكن يشتهي من زيارتها , لقد مرت سنتان وهي على هذه الحال , كنا نجلس نحن الأربع أخوات و نبكي طول الليل معها في الغرفة , نُمسك بأيدي بعضنا و نقوم بالدعاء و نتمنى أن يموت هذا الشيخ و أن يأخذ الله أمانته , كانت هذه الطريقة تُفيد أختي في التنفيس عن غضبها و تمنحها الأمل للاستمرار , كم هو مرعب أن يكون استمرارك في الحياة مرهون بموت شخص ما .

إنه موقف صعب جدا لكن بدى أنه الحل الوحيد كي تعيش أختي , كانت أفكار مريم هي الأكثر إمتاعا , قالت أنها تريده أن يُحتجز في الحظيرة مع أغنامه و بمرور الأيام حين تجوع تلك الأغنام تقوم بأكله , ستكون نهاية مأساوية لرجل أحب أغنامه أكثر من زوجته .

أتذكر أول مرة حاولت أختي فاطمة فيها الانتحار , كنتُ قد عدت من المدرسة مبكرا بسبب غياب معلم الرياضيات , دخلتُ المنزل و بدى كل شيء طبيعيا , الجميع كان في الخارج , و أمي كانت تزور جارتنا , دخلتُ الغرفة فوجدت حقائق فاطمة , ظننت أنها في المنزل , ناديتها لكن لم يُجب أحد , أردت دخول الحمام لكنني وجدته مغلقا , طرقت و طرقت و أنا أنادي عليها , أحسست بوجود أمر مريب فهي لم تجبني رغم إلحاحي المتواصل , في تلك اللحظة , سمعت مفاتيح والدي لذا أسرعت لأفتح له الباب و أخبره بالأمر , هرع أبي إلى الداخل و طرق الباب بقوة , وضع أذنه عله يسمع أي شيء لكن دون جدوى , فلم يصدر أي صوت من الداخل , عندها أصبح خوفه كفيلا لجعله يقوم بكسر القفل و الدخول .

حين دخلنا رأينا فاطمة مرمية على الأرض و مغمى عليها , لذا قام أبي بحملها و أخذها إلى المستشفى في الحال , كانت حياتها مهمة لنا , هكذا كان يردد أبي على الدوام , فزوجها يقدم له المال شهريا بدل إعطائه لفاطمة , كانت بمثابة أضحية قدمها أبي كي نعيش .

حين كنا في المستشفى اتصلت أمي بأبي و أخبرته أنها وجدت كل علب الدواء فارغة و مرمية في كيس القمامة لذا استنتجنا أنها حاولت قتل نفسها , كانت هذه ثاني مرة تُغسل فيها معدتها .

لم يحصل الكثير بعد ذلك , عادت الأمور إلى طبيعتها و وعدتنا أختي أنها لن تفعلها مجددا .

لدي أختان أيضا , تلي فاطمة في الترتيب أختي زهرة ثم مريم و أنا إيمان الأخيرة , لدي أخوان أيضا لكنني لا أعتبرهما أخوي , إنهما شخصان غريبان عنا تماما , إننا نعيش في المنزل كأننا فريقان , فريق البنات و فريق الذكور , هكذا تُقسمنا أمي , تقول ليأتي الذكور لتناول العشاء , لتأتي البنات لغسل الصحون , ليأتي الذكور لقياس الملابس , لتأتي البنات لغسلها , هكذا كانت طفولتنا لذا نحن لم نجتمع كثيرا بفريق الذكور , فلا شيء يجمعنا في نظر أمي .

أخي الكبير مجد يكبرُ فاطمة و هو عاطل عن العمل , لم يدخل يوما في عمل واستمر فيه لأكثر من شهر , كان إما يُطرد أو يُخرجُ منه بإرادته , في رأيي إنه يُطرد في جميعها لكنه يحب الكذب و ادعاء الاستقالة , حتى أنه دائما يقول أنه ترك المدرسة و الحقيقة أن المدرسة هي من تركته , فقد طُرد منها في السنة السادسة من التعليم الابتدائي .

إنه متزوج الآن , من يصرف عليه هو و زوجته يا ترى ؟ ببساطة إنه والدها , فزوجته بشعة لأقصى الحدود , لا يمكن لأحد النظر في عينيها مباشرة وإلا تحول إلى صخرة مثلما يحدث في أسطورة ميدوسا , لم يكن وجهها الوحيد البشع حتى كلامها و صوتها كانا يُذكراني بالشخصيات الشريرة التي نراها في الأفلام , كنا نناديها بيننا بالساحرة , ولا أعتقد أننا أخطأنا , فهي كانت تذهب إلى المشعوذات بل كانت عميلا دائما لهن , لربما يُخبرنها بوصفة تجعل الناس يرونها بوجه غير وجهها , أظن أن أخي كان فأر التجارب , لكن ورغم كل جهدها في هذا المجال إلا أننا لازلنا نراها بذلك الوجه , لقد تمنيت أن تنجح فنحن مُجبرون على رؤيتها و تحيتها في الأعياد و المناسبات , أخي لا يملك قلبا ولا حتى عينين لذا وجهها لم يكن مشكلة بالنسبة له فهو يريد نقود والدها و المنزل الذي وعده به , كل هذا كي لا تبقى ابنته عانسا و يقوم أهالي القرية بالشماتة بها , لكن ذلك المال لم يشتري وفاء أخي فهو لم يضعه في الاتفاق , فقد كان يخونها مع الكثيرات و هما لم ينجبا حتى الآن حتى مع مرور الكثير على زواجهما , رغم هذا هي لا تزال متمسكة به , فزوج خائن أهون من كلام الناس و نظراتهم .

أخي عبد الرحمان يكبر زهرة بعامين و هو الأسوأ إذا وضعنا أبي مقارنة به . إنه يتعرض لنا و يرحنا ضربا و يسرق أشياءنا , مرة قام بجمع كل جوائزنا المدرسية التي حصلنا عليها لتفوقنا الدراسي أنا و زهرة , كانت مجموعات من الكتب و السلاسل و القواميس , قام ببيعها كلها ليشتري هاتفا محمولا , و كان يهددنا دوما أنه سيقنع والدي أن يوقفنا عن الدراسة إن لم نقم بما يريد , لم يكن يجيد أي شيء سوى السرقة و التنمر على الآخرين .

\*\*\*

\_ مريم .. مريم ..

\_ ما الأمر يا إيمان .. ألن تتركيني .. هل تريدان أن أوقف أبي ليأتي و يرحك ضربا ؟

\_ لا لا تفعلي .. مريم أنا لا أستطيع النوم لقد رأيت كابوسا .

\_ إذهي و نامي لتري غيره عندها ستدركين أنه ليس بشعا لتلك الدرجة .

\_ أنا أتحدث بجدية .

\_ هل تريننا كلنا نائمات .. نحن نحلم بنفس الكابوس لكن لا أحد منا ينهض و يزعج الآخرين ما عداك .. لما تزعجيننا اه ؟

\_ أنتِ شريرة .

\_ أعلم إذهي و نامي إذن .

\_ أنتِ سيئة أيضا .. أنتِ تلين مجد في السوء .

\_ هل رتبنا من الأسوء إلى الأفضل .. معك حق أنا أحاول جاهدة أن أتفوق عن عبد الرحمان لذا واصلي عملك الجاد .. يوما ما سأكون على رأس القائمة .

مريم كانت على عكسنا تماما , فاشلة في الدراسة و عنيفة , كان يجب ألا تكون في فريق الفتيات معنا .

لم يكن يهمها مدى تعرضها للضرب أو التوبيخ أو الطرد من المنزل , لقد نامت مرة أمام الباب مع الكلاب في الخارج , إنها أقوانا و أشجعنا أنا معجبة بها في كثير من الأمور لكنني أشفق عليها أيضا , كانت طريقتها للكفاح توقعها في الكثير من المشاكل , لولا أختي فاطمة لكانت مريم قد تركت المدرسة منذ وقت طويل فهي كانت تشجعنا جميعا و تشجعها خاصة على إكمال دراستها كي لا ينتهي بها الحال متزوجة بشخص يكبرها سنا و تعيش ما تعيشه هي , لكن مريم لم تكن تهتم بالدراسة , إنها تكره جميع المواد ما عدى حصة الرياضة البدنية , كانت الوحيدة التي تفضلها , فهي تحب الركض كثيرا , إنها عداءة سريعة دوما ما تحتل المرتبة الأولى على صفها متفوقة حتى على زملائها من الذكور , مع هذا كانت مكروهة من طرف الأساتذة بسبب فشلها الدراسي , كما أنها كانت تشكل رعبا دائما للتلاميذ في الثانوية , كان الجميع يكرهها لكنهم كانوا يخافونها و هذا ما كانت تريده , فقد سئمت أن تكون هي الخائفة و أرادت أن تكون المخيفة , في الثانوية كلها كان لها صديق واحد اسمه فاتح , فاتح كان سيئا أيضا , كانت والدته متوفاة و يعيش مع والده و زوجته , أراد أن يكون لاعب كرة قدم , أما مريم فأرادت أن تشارك في الأولمبياد , كانت الرياضة وحدها ما يجمعهما .

آخر أخواتي هي زهرة , إنها مفضلة والدي فينا نحن الأربعة فهي لم تكن تتعرض للضرب مثلنا نحن , هذا لكونها فتاة مطيعة , إنها تفعل أي شيء لإرضاء والدي , لم تعترض على أوامر والدي أو ظلم والدي يوما , كانت التلميذة المثالية و الإبنة المثالية البارة , حتى أن أخوي كانا يكرهانها فقد كانت منافسة لهما , كانا خائفين أن تأخذ مكانتهما , لكنهما لم يدركا ما تدركه زهرة , أنه مهما فعلت لن تكسب ودهما و محبتهم التي يكسبانها , كل ما كانت تفعله كان لتجنب كراهيتهما فقط لا طمعا في حبهما .

حلم زهرة كان معلوما لنا جميعا , فمنذ زمن و هي تقول أنها تريد أن تصبح أستاذة أدب , فهي تحب التعليم , كانت مهنة نبيلة بالنسبة لها , حتى أنها تُدرّسنا أحيانا في المنزل , زهرة لم تستحق ما حصل لها , مثاليته هذه لطخت , أصبحت شائبة و تحطمت كل أحلامها فجأة .

زهرة كانت جميلة مثل فاطمة , و توقعنا أنها ستتزوج من رجل غني و تعيش حياة سعيدة , لكن هذا لم يحدث أبدا .

كان لأخي عبد الرحمان صديق غني , والده هو رئيس البلدية , إنه سيء لدرجة كبيرة , حتى أنه أدخل أخي في تجارة المخدرات معه , فأصبح تابعا له . كان يدرس معها في نفس الصف فقد كان معيدا للسنة , وكان يتنمر عليها لوقت طويل , لكن حين علم أن عبد الرحمان يكون أخاها استطاع تنفيذ جريمته .

في يوم ما وعلى غير العادة لم تصل زهرة في موعدها إلى المنزل , لقد تأخرت كثيرا , حتى جُنّ جنون أبي , لقد خفتُ عليها أن تعود إلى المنزل بدون سبب مقنع لتأخرها و إلا ستكون نهايتها على يد والدي .

فجأة , تلقينا اتصالا من المستشفى , ذهبنا ركضا إلى هناك و سألنا عن غرفتها فور وصولنا و حين دخلنا رأينا منظرا بشعا , لم تكن زهرة كما تعودنا عليها , حتى أن أمي أغمضت عينيها من شدة قساوة المشهد , أدركنا ما حصل معها فورا , حينها دخل الطبيب و استدعى والدي إلى الخارج ليؤكد شكوكنا لهما , بقيت مع أختاي نشاهد ما حصل لعزیزتنا , لم نذرف أي دموع , أصابنا الجفاف فجأة , و لم نصرخ حتى , لقد فقدنا أصواتنا مثلما فقدنا تلك الدموع .

فاطمة شعرت بالجحيم معنا أيضا , الآن لا مكان لتهرب إليه , كل مكان أصبح جحيما عليها الآن , أخوانا لم يكونا بجانبنا كالعادة , أحدهما لديه سرقات عليه تنفيذها و الآخر مشغول بإيجاد عمل تحت تهديد زوجته , تقدمتُ نحو زهرة و أمسكت يدها و ناديتها بصوت حاولتُ جعله أقل بؤسا مما هو عليه كي لا أشعرها بما نراه و الخنجر الذي غرس في قلوبنا لحظة رأيناها .

\_ زهرة .. زهرة إفتحي عينيك قليلا .. أنت بخير لا تقلقي .. لم نسمع ما قاله الطبيب لوالدي لكن نعدك أنك ستكونين على ما يرام .. كل شيء سوف يشفى لتعودي كما كنت .. غدا سوف تنسين كل هذا و سيبقى في الماضي .. حسنا ؟

فجأة سمعنا صراخ أبي في الرواق , أمسك بالطبيب و كاد يضره لكن حراس الأمن أتوا مسرعين ليبعدوه عنه , كانت أمي تصرخ أيضا و تقول جملة مشهورة من قائمة جمل المرأة الشرقية المليئة بعبارات النواح .

\_ لا تأخذوه .. أتركوه .. أتركوا والد أبنائي .

بقيت زهرة نائمة لثلاثة أيام و حين استيقظت استطعنا أخذها للمنزل , كان أخي عبد الرحمان متوترا طوال الأيام الفائتة و حين عادت زهرة إلى المنزل أمسكها من ذراعها و أخبرها أنها يجب أن تصمت , حين حضر والدي نادى زهرة , أخيرا يستطيع استجوابها و تطبيق الحد عليها , وقفنا جميعا نراقب و قلوبنا تعصر. كأننا نحن من نعاقب مكانها فكل كلمة و كل نظرة نحسها موجهة إلينا .

أزاح والدي الطاولة الصغيرة التي تفصله عن زهرة و أخرج حزامه الجلدي من سرواله , قال و هو هادئٌ تماما :

\_ لقد نمت لثلاثة أيام حينما لم أستطع حتى إغماض جفن لأخذ قسط من الراحة .. عقلي لم يتوقف للحظة عن التفكير في ما حصل .. الآن أخبريني .. لا أريد سماع عبارات مثل لا أعلم أو لا أتذكر وإلا و الله لن أقول إبنتي .. لن أرحمك يا زهرة .. تكلمي .

أمي وقفت مثل المُشاهد الذي لا يعنيه الأمر فقد ظنت أن ابنتها مذنبه منذ البداية و عليها تلقي العقاب .

قالت أختي برعشة واضحة في صوتها مشيرة بإصبع مهتز إلى عبد الرحمان : إنه صديق أخي .. هذا ما قاله ..

نظر أبي إلى أخي و قال له : ما الذي تقوله هذه الفتاة .. هل هو صديقك حقا ؟

قال عبد الرحمان دون أن يرف له جفن : إنها تكذب أنا لا أتجول مع أمثال هؤلاء الأشخاص .

خفنا جميعا أن يصدق أبي كلام أخي و نشاهد مقتل أختي أمام أعيننا , لكن مريم تشجعت كعادتها و سبقتنا , صرخت قبل أن يقوم أبي بأي حركة : إنه صديقك و أنا أعرفه .. إنه مشهور في المدرسة فهو يضايقها طول الوقت و أنت تعلم بهذا .

نظر أبي إلى مريم و قال موجهها الكلام لنا كلنا : أدخلن وإلا لقنتكن درسا أنتن أيضا .

قالت مريم كعادتها متحدية : إذا لم تكن تصدقني فاذهب إلى المدرسة و اسأل عنه .. سأعطيك اسمه و ستجد أنه يدرس معها في نفس القسم .. إذا نظرت إلى هاتف ابنك ستجده أيضا ضمن قائمة اتصالاته فقد جنده معه في تجارة المخدرات .

هرع أبي بوجه أحمر و عينين تشتعلان غضبا نحو أختي مريم و أمسكها من رقبتها و كاد أن يخنقها , لكن مريم نظرت مباشرة في عينيه , لقد رأت عيناه فيها تلك القسوة و الوحشية نفسها التي يمتلكها , قالت بعدما استجمعت ما تبقى لها من أنفاس :

\_ إنه ابن رئيس البلدية ..

أقلت أبي رقبتها ثم اتجه نحو أخي و أمره أن يعطيه هاتفه , لكن أخي كان مترددا مما جعل أبي يشك فيه أكثر فصفعه ليسقطه أرضا و يأخذ هاتفه من جيب معطفه , أشار له أن يفتحه ليشرح أبي عندها بالبحث في الهاتف فوجد رسائل بينهما و أدرك كل شيء .

قال أخي و هو ممسك بقدمي والذي بكل قوته , متخذا وضعية التوسل الأكثر اقناعا :

\_ لقد هددني أنه سوف يدخلني السجن إذا ما شكونا به للشرطة .. لا يمكنني أن أتركها تفعل ذلك سوف ينتهي مستقبلي يا أبي .. هل تقبل هذا على ابنك .

كادت مريم أن تذهب لإحضار سكين من المطبخ لقتل أخي لكنني أمسكتها و فاطمة , قاومنا كثيرا تلك الليلة حتى لا تصبح أختي قاتلة .

إنه يتكلم عن مستقبله , ذلك الحقير , ماذا عن مستقبل زهرة إذا , أعتقد أن الوحوش موجودون بالفعل و ليسوا قصصا خيالية نحكيها للصغار كي نتسلى , هم حقيقيون و الأسوأ أنهم يعيشون بيننا .

نظرات أمي كانت قاسية , إنها كل ما استطاعت زهرة رؤيته في عيني والدتنا , الخيبة .

لا أعرف بعد كل ما سمعته لا تزال تعاقب ابنتها بهذه الطريقة , لما لا تزال تشعر بالعار و الخيبة اتجاهها , ماذا كان ذنب أختي في كل هذا , إنه فخ وقع فيه أخي و كانت هي الضحية لا الجاني , لماذا تخطئ في تصنيفها , يقولون أن الصرصور في عيني والدته يكون غزالا , لماذا أحس أحيانا أننا أسوء من الصراصير في عينيها , كان يجب أن تقف بجانبنا حتى لو أخطأنا , أليست هذه هي الأم على أية حال , أعلم أنه أمر سيء أن تدعم أولادك على أفعالهم و لكنها

الطبيعة , والداك يحبانك مهما حصل , حتى لو أخطأت سيكونون موجودين ليوجهوك من جديد لا التخلي عنك و قطع صلتهم بك .

لماذا زهرة من بين كل الفتيات في المدرسة , هذا لأنها لا تملك أبا أو أخوا أو أي أحد ليحميها , بل في الأصل هي تحتاج من يحميها منهما .

هل هذا هو ذنبها يا ترى ؟

كنت أتوقع أنها ستحاول إنهاء حياتها في الأيام القادمة فقد كنا جميعا نقوم بمراقبتها خوفا أن تؤذي نفسها , لكن زهرة كانت نائمة فقط لم تكن تأكل أو تشرب , فقط تنام , كان النوم مهربها الوحيد من الواقع الذي تعيشه أو ربما أرادت أن تستيقظ يوما ما منه لتجد أن كل شيء كان مجرد كابوس و عليها النهوض من السرير للذهاب إلى المدرسة قبل أن تتأخر , لكن مع الأسف كلما استيقظت نسمع بكاءً وصراخا شديدين , أظن أنها تستيقظ من أحلامها البسيطة لتجد أن واقعها هو الكابوس بحد ذاته .

حتى الانتحار لن يفيدها سيظل اسمها مشوها طول حياتها , حتى صديقاتها اللاتي تعودن على زيارتها عند المرض أو في المناسبات , تركنها , لقد أصبحت صداقتها وصمة عار لهن أردنا قطعها ورميها بعيدا , لم تجب أي واحدة على هاتفها و لم يأتي أحد ليطمئن .

توقفت عن ترديد عبارة أريد العودة إلى المدرسة بعد أن ظلت تصرخ بها لأسابيع رغم رفض والدي المتكرر .

لقد تخلت عن أحلامها أو بالأحرى أحلامها تخلت عنها , فكل الناس قد فعلوا الشيء نفسه فلم تعد مندهشة و لم تعد تبالي بشيء , أصبحت الحياة بالنسبة لها فارغة و كل تلك الأمور الجميلة التي نعيش لأجلها أصبحت فجأة بلا معنى .

قرر أبي تزويجها كي يتخلص منها , أي شخص قد يفي بالغرض فلا يهمه عمله أو سنه أو شكله أو خلفيته الاجتماعية كل تلك الأمور لا تهم , يكفي أن يأخذها بعيدا عنه .

لقد سألت حتى أصدقائه إذا أرادوا الزواج مرة أخرى لكن لا أحد أراد الزواج بفتاة مثلها- بالنسبة لهم -هي سلعة مستعملة .

هذه العبارة تشعرني بالاشمئزاز و تجعلني أضحك كل مرة سمعتها أو فكرت بها .

هم يفكرون بنفس الطريقة عن الأرملة و عن المطلقة , إنه مجتمعنا الذي نعيش فيه , فرص المرأة تقل مع تقدمها في العمر و مع إنجابها للأطفال , مع كل أمر ينقص من جاذبيتها كأثى .

المطالبة بحقوق المرأة أحيانا تكون بلا فائدة , فالحقيقة هي حسب الآية الكريمة , لن يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

فالتغيير يكون في عقول هؤلاء الذين حتى لو أعطى القانون كل الحقوق للمرأة ظلوا ينظرون إليها كجسد لا كروح , شعاري "لا تعاملني كامرأة عاملني كإنسان".

مريم أرادت بشدة أخذ زهرة و الذهاب للشرطة رغم تهديد والدي المستمر بطردنا جميعا من المنزل إن فعلت أمرا غبيا .

لكن زهرة أخبرتها ألا تفعل فهي تُدرك جيدا من سيفوز في النهاية و هي تعبت من الخسارة لذا لا تريد دخول حرب تعلم من بدايتها أنها ستنتهيها .

صممت مريم لفترة بسبب توسلاتنا التي لا تنتهي , لكن رئيس البلدية لم يترك لها مجالاً لتنسأه .

بينما كنتُ في المدرسة و خلال احدى الحصص , سمعنا صراخا قويا في الساحة فاتجهنا جميعا نحو النوافذ لنرى ما يحصل .

لقد كان مشهدا مرعبا يحبس الأنفاس , رغم كوني إنسانة متعودة على رؤية أشخاص يتعرضون للضرب , إلا أن ذلك كان مشهدا مرعبا بحق .

كان أحد أساتذة المدرسة يقوم بتعنيف تلميذ ما , لم أستطع التعرف عليه في البداية ثم تعرفت على وجهه فجأة , كان فاتح , نعم إنه هو , كان المعلم يسدد له اللكمات دون انقطاع حتى تغيرت ملامح وجه المسكين , أسرع المعلمون ليمسكوا به و يبعدوه عن الفتى قبل أن يجهز عليه .

و قد رأيتُ مريم من بعيد تسرع لتساعد فاتح على النهوض ثم تأخذه بعيدا ليتوارى عن الأنظار فقد كانت المدرسة كلها تشاهد .

بعد هذه الحادثة علمتُ أن أمرا سيئا سيحصل , إنه الإحساس الذي تشعر به حين تعلم أن الأمور لن تنتهي على خير .

أخبرتني مريم أن المعلم تشاجر مع فاتح بعد أن قام بإهانة والده في القسم , هذا لأن والد فاتح قام بضرب المعلم بعد أن استدعاه لمناقشة درجات ابنه , تقول مريم أن المعلم وصف فاتح بالغبى وأنه يحتاج إلى دروس خصوصية عنده إن أراد النجاح في الامتحانات النهائية و الصعود للجامعة , لكن والد فاتح غضب من كلام المعلم و فهم نيته منذ البداية لذا قام بضربه .

كان ذلك المعلم معروفا بتلاعبه بنقاط تلاميذه من أجل سحبهم للدخول في دروس خصوصية يقوم هو بتقديمها , و بعد ذلك تصبح نقاطهم عالية فجأة ليظنوا أن مستواهم تحسن فعلا .

مر أسبوع على الحادثة وكانت المدرسة تتصف بالهدوء الذي يسبق العاصفة , في الأسبوع القادم تم تعليق إعلان عن طرد فاتح من الثانوية بسبب شجاره مع المعلم و سلوكه السيئ و قلة احترامه للمعلمين الآخرين كما أنه يشكل عائقا على زملائه في الصف لذا وقع الجميع على ورقة لطلب نقله من المدرسة .

كان الأمر ظلما واضحا له لكن لا أحد استطاع فعل شيء و هو أكثر أمر تكرهه أختي مريم , تكره أن تكون بلا أية حيلة , كل الأمور تكون ضدها و لا شيء يسير كما تريد و هي ببساطة لا يمكنها فعل شيء فقط عليها تحمل الأمر .

سمعت مريم بالصدفة حديثا بين ذلك المعلم و ابن رئيس البلدية , لقد كانا يتحدثان عن فصل فاتح , أشاد المعلم بمهارة رئيس البلدية و كيف استطاع جعل المدير يوقع على ورقة الطرد كما أنه وعده بنقاط عالية جدا هذا الفصل لذا ليس عليه القلق حيال شيء .

شعرت مريم بغضب شديد و أرادت إخبار فاتح لكن لسوء حظها فقد فات الأوان .

صباح اليوم التالي وُجدت جثة فاتح مرمية أمام الوادي و قد اشتبه بانتحاره بعد طرده من المدرسة فربما قفز من فوق التل و رمى نفسه في الوادي ليموت .

الكل صدق أنه انتحر لكن مريم رفضت الأمر تماما , لا أحد علم حقيقة ما حصل له , لا الشرطة و لا والديه و لا حتى مريم .

قررت مريم أن تكون قاتلة تلك الليلة فذهبت إلى منزل رئيس البلدية في وقت متأخر من الليل و أضرمت النيران فيه .

توفيت عائلة الرئيس إثر الحريق و لم تستطع سيارات الإسعاف اخماده في الوقت المناسب .

حين استيقظنا في اليوم التالي وجدنا أن جميع أشياء مريم قد اختفت حتى أنها أخذت كل المال الذي كان بحوزتنا و هربت , لم يعلم أحد السبب سواي , فقد كنت أعلم أنها سوف تقدم على أمر مجنون كهذا , كنت الوحيدة التي تخبرني عنه و عن أحلامهما المستقبلية معه , فالكل له همومه أما أنا فلي هموم الكل .

استجوبنا أبي طويلا و بكل الطرق لنخبره بمكان مريم , لكن لا أحد منا كان يعلم حتى أنا , و بعد مدة استسلم فلو كنا نعلم لتحدثنا بعد الضرب الذي تلقيناه .

كان أسوء عام مر على عائلتنا , بعد مدة تعودنا على غياب مريم و مزاج زهرة المتقلب و مجيء فاطمة المتكرر , أخي محمد صار يعمل مع والد زوجته و أنجب طفلا كي تستمر دفعات الشهر بالقدوم إليه , كما أوقفت الشرطة أخي عبد الرحمان بعد القبض عليه متلبسا ببيع المخدرات فحُكم عليه بالسجن مدة عام كامل , وقد كان هذا الخبر السعيد الوحيد الذي سمعته منذ مدة , كنت أفكر بمريم دائما و تساءلت عن أحوالها , هل تأكل جيدا هل تنام على سرير مريح أم أن أحدا قتلها و رمى جثتها في الوادي فلم تعثر عليها الشرطة .

كنت أستيقظ كل يوم على كوابيس كثيرة , كلها متعلقة بها , ثم بدأت أعود فالإنسان -لحسن حظه- يستطيع التعود على كل شيء , لكن لسوء حظه أنه يتعود على الأمور الجيدة أسرع بينما يستغرق الكثير ليعتاد على الأمور السيئة , إن سوء الحظ يفوز كالعادة , ليته يترك مجالا لحسن الحظ كي يفوز مرة على الأقل .

بعد رحيل مريم أصبحتُ أتعرض للتنمر فقد كانت هي من تحميني بعدما حصل لزهرة , فقد أصبحتُ منبوذة من قبل زملائي , أظن أن آباءهم يقولون كلاما كثيرا عن عائلتنا أمام أولادهم مما جعلهم يُكنون كل هذا الكره و الاحتقار اتجاه أفراد أسرتي و أنا لا ألومهم على هذا , تحولتُ فجأة من تلميذة متفوقة و مجتهدة إلى فتاة منبوذة حتى من قبل المعلمين فالكل يتحاشى المرور بي , أما الذين كرهوني منذ البداية فقد كانت فرصة لا تعوض للانتقام مني , بدؤوا بنعتي بألفاظ جارحة ثم أصبحوا يسرقون أشياءي و أحيانا يقومون بدفعي في الممر , و لا يفوتون أي فرصة للتنمر علي , رغم أنني كنت مثيرة للشفقة لكن لا أحد أراد مساعدة فتاة مثلي , حتى لمسي- بالخطأ أصبح مثل لمس الأوساخ فهم يذهبون لغسل أيديهم إذا ما أخطؤوا و لمسوني .

فجأة تحولت المدرسة إلى جحيم مثل المنزل , لم أكن أحب أن أتمشى- وحيدة في ساحة المدرسة عند الاستراحة , بغض النظر عن الوحدة , كانت أعين التلاميذ الموجهة نحوي و نظراتهم القاتلة و همساتهم و ضحكاتهم التي يُسمعوني إياها عن قصد تغرس الشوك في جسدي , إنهم يتحدثون عني كأنني أسير عارية بينهم .

\_ كيف تجرؤ على الخروج للساحة ..

\_ بأي وجه هي تسير بيننا ..

\_ حقا إذا لم تستحي ففعل ما شئت ..

كل تلك الكلمات كُنت أراها و لا أسمعها , فقد أغلقت أذني منذ وقت طويل كي لا أسمع أي شيء بعد الآن , لكنهم كانوا يكتبونها و يلصقونها وراء ظهري أو يرسلونها لي في قصاصات أثناء الدرس .

في ظل هذه الظروف تذكرت تلك المعلمة التي تحدثت عن تعبيري بقلق , لقد كانت المرة الأولى بالنسبة لي , المرة الأولى التي اهتم شخص ما بما أفكر و أشعر و أريد .

لكنها رحلت كالجبانة و تركتني لأنها لم ترد تحمل المسؤولية أو ربما لم تستطع تحمل الواقع .

في بداية سنة جديدة , السنة التي علي اجتياز امتحان البكالوريا و دخول الجامعة , ظهر شخص ما أعار الاهتمام لما أفكر و أشعر و أريد .

بعد مرور شهر على الدخول المدرسي , طرقت فتاة الباب و استأذنت المعلمة للدخول , لم أهتم بها كثيرا و ركزت نظري على النافذة فقد كان المطر يتساقط , كان المطر يهدئني , ربما لأنني ولدت في يوم مطر .

فجأة تكلمت المعلمة و قالت أنها فتاة جديدة في الفصل , أخبرتها أن تجلس في مقعد فارغ , لقد كنت المنبوذة في القسم لذا كان المقعد بجانبني فارغا فتقدمت نحوي و جلست , شرعت في إخراج أدواتها , جهتها مقارنة بجهتي كانت تبدو كالجنة و الأرض القاحلة فأنا لم أمتلك أدوات أبدا , كل ما كنت أملكه سُرق مني من قبل المتنمرين , هم لم يتركوا لي شيئا عدى قلم الرصاص , لم يكن لوالدي أن يشتري لي أدوات جديدة إذا أضعتُ خاصتي هذه , كانت قاعدة سارية منذ بدأت الدراسة في الابتدائية .

فجأة وضعتُ تلك الفتاة قلم حبر فوق كتابي , نظرتُ نحوها بتعجب فقالتُ :

\_ أنا لا أحب هذا القلم إنه لا يكتب جيدا و خطه رديء يمكنك أخذه .

أنا واثقة أن ما قالته كان كي لا أشعر بالحرج , لذا أجبتها :

\_ حسنا دعيني أخلصك منه إذن .

ابتسمت الفتاة و وضعت حقيبتها وراءها ثم سألتني :

\_ ماذا سندرس الآن ؟

\_ لدينا حصة رياضيات .

هزت رأسها ثم نظرت حولها جيدا , بدتُ كأنها تُعد التلاميذ , التفتتُ و سألتني :

\_ لماذا توجد الكثير من الفتيات مقارنة بعدد الذكور .

أخبرتها أن معظم الذكور هنا لا يكملون دراستهم بل يفضلون الذهاب للعمل مبكرا .

قالت أن في مدرستها القديمة كان عدد الإناث و الذكور في القسم متساو .

فأجبت بتهكم : إن المساواة ليست أمرا يمكن أن تريه في هذه القرية لذا ليس عليك أن تنصدمي في المستقبل .

لقد ظنتُ أني أمزح لذلك ضحكت , أما أنا فقد شعرتُ بالغضب لأنها وجدت ما قلته مضحكا و أنا التي قلته بمنتهى الأسي .

كان عليها مراعاة مشاعري و كيف تفعل ذلك إن كانت لا تعي بمشاعري , لماذا قد أحقد على شخص لم يعي أن ما فعله أضرنني , أظن أن علي البدء في الحديث إن أردت التوقف عن جرح نفسي و الإشفاق عليها .

هذه كانت عادة , كنت أظن أن عقاب نفسي- كان يعد عقابا للآخر لأنه سيحس بتأنيب الضمير , لكن هذا لم يحصل و لن يحصل .

لا أحد سيحس بتأنيب الضمير تجاهك و لن يشعر بالندم إذا لم يكن الأمر قد سبب له الأذية و لو قليلا , إنها خبرة سنوات من معاملة الناس بهذه الطريقة , و هذا ما اكتشفته , حتى الناس

الذين تعاملهم بلطف , ستظن أنهم سيحزنون و يسعدون لحزنك و سعادتك , لكن الحقيقة قد تكون عكسها , سيسعدون و يحزنون لحزنك و سعادتك , ربما ليس كلهم فبعضهم لن يهتم بتاتا , لن يدع مزاجك يؤثر عليه من الأساس .

لنعد لموضوعنا الأساسي , و هو الفتاة الجديدة , لقد مر أسبوعان و هي لا تزال تجلس بجانبني , ما خطبها يا ترى ؟ هل هي عمياء أم غبية , ألم تلاحظ أني كالفيروس في القسم , الكل يتجنبني كأنني مصابة بعدوى قاتلة , و لمسي- يكفي لقتلهم , لكنها مع هذا استمرت في الحديث معي و مرافقتي في الساحة , في البداية ظننت أنه ليس لديها أصدقاء , لكن الحقيقة أنها محبوبة جدا , و أنا أعرف ما يجذبهم إليها , كانت من عائلة منفتحة قادمة من العاصمة , والدها هو رئيس البلدية الجديد لذا انتقلوا للعيش في هذه القرية , لو كنت مكانها لفضلت قتل نفسي. على ترك العاصمة , لكنها كانت مريضة ريو و هواء العاصمة يؤديها , و قد فكرتُ عائلتها بالمجيء و العيش في قرية ما , أين يكون الهواء نقيا , و لحسن حظهم عُين والدها في قريننا , هكذا تظن هي , لا أعتقد أنها تعلم بعد ما حصل لرئيس البلدية السابق .

في بداية الأسبوع الثالث لمجيئها , استيقظتُ مبكرا ذلك اليوم بسبب صوت شجار والداي الذي أصبح تقليدا لبداية اليوم , الأمر المُتغير هو سبب الشجار , مرة يهينها بسببنا و مرة تهينه بسببنا , قد يبدو الموضوع نفسه لكنه حقا مختلف , هو كان يحتقرها لأن أولادها مجرد فاشلين , كأنها أنجبتنا بمفردها و ليس نصف طابعا الوراثي آت من عنده , أما هي فقد كانت تهينه لأن أولادها ليسوا ناجحين , كانت تلومه لأنه في نظرها إذا كان الأب ناجحا كان أولاده كذلك و لم يكن سيلجؤُ أحد أبنائها لبيع المخدرات و الآخر للزواج من غُراب , أما ابنتها البكر فقد بيعتُ مثلما تُباع الجواري قديما في سوق النخاسة , فقد تزوجت من أعطى السعر الأعلى , و لَمَّا استطاع أحدُ التجروءُ على لمس شعرة من رأس زهرة لأن والدها سوف يعاقبه .

أنا و مريم لم ندخل يوما في موضوع نقاشهم حتى عندما كانت مريم هنا , فقط أظن أنهم نسوا أننا موجودتان , ففي الماضي اعتادت أي وضع ست ملاعق فقط في الطاولة , لم نشتهي يوما لأننا نعلم أنها سيئة في الرياضيات , لكنني كنت أخبر مريم أنها ربما تكون قد توقفت عن عد أطفالها بعدما أنجبت زهرة , و كنا نضحك على هذا كلما أعدت أي طاولة الطعام , لكنني أجده الآن مزعجا جدا , لذا خرجتُ مبكرا من المنزل ذلك اليوم و سَرت بخطوات سريعة إلى المدرسة فالجو كان باردا .

حين دخلتُ إلى الرواق حيث أقسام السنة الاخيرة , سمعتُ فتيات تتكلمن بصوت عال , لمحتُ الأقسام الأخرى فبدى أن أصواتهن قادمة من قسمي , بقيت واقفة بالقرب فقط لأعلم موضوع النقاش , إنه الفضول , عدو الإنسان .

فجأة عم الصمت , لذا ازددتُ فضولا و أردتُ إلقاء نظرة خاطفة , كانوا ثلاث فتيات و الأمر الذي استوقفني هو وجودها معهن . أنا واثقة أنها الفتاة الجديدة , حسنا هي لم تعد جديدة و لكن مادام لازالت لا تعلم بقصتي فهي جديدة , قالت إحدهن بعد صمت طويل : إلى متى ستبقين عنيدة هكذا نحن نقول هذا لمصلحتك ابتعدي عنها إنها لن تجلب لك سوى المشاكل .

حين سمعتُ هذه العبارة أدركتُ أنهن قد أخبرنها بكل شيء , هذا صحيح فهن لن يفوتن فرصة رؤية رفيقتي في المقعد تغير مقعدها لأعود وحيدة مجددا , أظن أن رؤيتي في الساحة معها كان يخنقهن أنا أراهن على هذا بحياتي .

لكن في نفس الوقت صمت تلك الفتاة بدى مربكا , لما لم تقل أي شيء ألا تصدقهن يا ترى ؟

سألت فتاة أخرى كأنها سمعت ما يجول في عقلي : ألا تصدقينا .. لقد أخبرناك منذ اليوم الأول بكل شيء لكنك لم تعيرينا أي اهتمام و استمررت في الجلوس معها حتى أنكما تخرجان سويا في وقت الراحة .

عم الصمت مجددا لكن هذه المرة سمعت خطوات إحدهن و هي تتقدم نحو الباب , لقد كاد قلبي أن يقع من مكانه لكنها توقفت فجأة و قالت : إن لم تكوني تصدقينا اسألي شخصا آخر .

عدت خطوات إلى الوراء ثم تقدمت متعمدة إصدار بعض الأصوات حتى ينتبهوا لمجيئي , حين دخلت القسم نزعْتُ إحدى الفتيات يدها عن الجديدة و غيرت نبرة صوتها لتكون ودية ثم قالت : نراك لاحقا حسنا ؟

حين خرجتُ الفتيات حاولتُ التدقيق في وجهها كي أحصل على تلميح لما يجول في عقلها الآن لكنها كانت بارعة في إخفاء مشاعرها , أظنه فن جديد من فنون الدفاع عن النفس قد اعتمده , لم أكن أجرؤ على سؤالها , لا أعلم لما يملكني الخوف من ردة فعلها رغم أني لازلتُ لا أعتبرها صديقتي حتى الآن , لأنها مسألة وقت حتى تتغير معاملتها لي .

ألقيتُ عليها التحية و جلست , شرعتُ في إخراج أشياءي , أردتُ أي شيء ليلهييني كي أتوقف عن التفكير بالموضوع , ماذا لو كُنَّ على حق , ماذا لو أنها لا تصدقهن فحسب , لو أنها سألت شخصا آخر , تلميذة أخرى مثلا و أكدت لها الأمر , لكنتُ الآن أجلس بمفردي , لقد أصبح الأمر مثل جنون المجرم الذي يخشى. أن تُكشف جريمته و يدخل السجن الإفرادي , أعتقد أن الأمر كذلك , الاختلاف الوحيد أن جريمتي كانت تستحق الموت لا الحبس , فقد كنت أشارك في استهلاك الهواء الموجود على الكوكب , كانت أنفاسي جرما لا يُخترف .

لم تكن مريم تغيب عن فكري يوما , حتى حين يمر اليوم دون أن تُسرق أشياءي أو تمزق دفاتري أو أُدفع في الرواق أو أُشتم في طريقي إلى المنزل , كنت أتذكرها , كنت ألوم أبي لأنه لم يذهب للبحث عنها , حتى أمي تبدو كأنها نسيتها تماما , إنها لا تخطئ و تلفظ إسمها حين تنادينا لعمل أمر ما , فأمي تنادي بأسامينا كلنا حتى تصل للمقصودة , لكنها توقفت عن قول إسمها , لقد لاحظتُ الأمر لأني اشتقت لسماعه , فأحيانا ألهوم مع القطط في الخارج و أسميها مريم كي أتذكر كم كان جميلا لفظ اسمها .

لم يكن مسموحا لي التأخر عن المنزل منذ حادثة زهرة لذا لم أستطع الذهاب و سؤال زملائها عنها , لربما ذكرتُ أين ستذهب لشخص ما , أو أعطته رسالة ليبلغها إذا أتى شخص للبحث عنها , هكذا يحصل عادة في الأفلام .

مرت امتحانات الفصل الاول و قد حصلت على المركز الأول كالعادة , و في هذه الفترة ازداد التمر علي أكثر , حتى أن إحدى الفتيات قامت بدفعي من أعلى السلم في المدرسة , و للأسف فقد كسرت ساقى , لسوء حظي لم يكن من الموجودين سوى صديقاتها و بعض الجبانات اللواتي لن يضعن أنفسهن في المشاكل لأجل شخص لا يعنيهن , فظن الجميع أنني وقعت من تلقاء نفسي. , الجانب الجيد في الموضوع أي مُنحت إجازة للمكوث في المنزل , هذا أهون من الذهاب للمدرسة كل يوم , لا أعلم لما لم أفكر في الموضوع من قبل لكنت حصلت على هذه الإجازة مسبقا , لكن الذي لم أحسب حسابه هو مجيئها لزيارتي في المنزل , و من غيرها إنها الجديدة , سألتها أمي من تكون فأجابتها :

\_ أنا صديقة إيمان .

سألت أمي : من ؟

ليس لأنها لم تسمعها جيدا بل أرادتُ برهة من الزمن لتتذكر من تكون إيمان من بناتها , ثم قدّمتُ إليّ و قالتُ : إذهبي إلى صديقتك إنها في الخارج تنتظرك .

شعرت بالخجل مما ارتديه فملايسي في المنزل كانت معظمها رثة , بحثت في ملابس زهرة عن أي شيء لارتدائه و حين وجدته استدرت فوجدتها أمام باب الغرفة بجانب أمي تنظر إلي بتعابير لا توحى بشيء , نظرتُ إليهما بارتباك فسألتُ أمي : ما الأمر لما تأخرتي ؟

نظرتُ باتجاه قميص أختي و قلت : لقد أردت أن أنتهي من طي الملابس أولا ثم القدوم .

أعدتُ القميص إلى الخزانة بينما لايزال الارتباك يُحيط بي , غادرتُ أمي قائلة : أنا في المطبخ إن احتجتما إلي شيء ما .

طلبتُ من الجديدة الجلوس و سألتها إن أرادت شرب شيء ما , لاحظتُ أنها كانت تحمل كيسا معها , أجابتُ : لا أريد شيئا شكرا لك أنا في عجلة من أمري أردت إحضار الدروس التي فاتتك هذا الأسبوع و سآتي الأسبوع القادم لإحضار المزيد .

حين قدّمتُ لي الكيس فتحته لأنظر بداخله , تفاجأتُ بوجود علبة طعام كذلك , فأضافت : أمي وضعت البعض من الحلوى التي أعدتها البارحة بمناسبة ميلاد والدي آمل أن تعجبك .

لقد تسمرت في مكاني حين قالت هذا , نسيت حتى أن أشكرها و دون أن أضيف شيئا نهضتُ و قالتُ : آمل أن تشفي قريبا أراكي الأسبوع القادم .. إلى اللقاء , ثم خرجتُ مسرعة , أردت اللحاق بها لقول شكرا لكن ذلك مجرد مضیعة للوقت , فمع رجل مكسورة و عكازين ستكون قد خرجت من حيننا بالفعل حين أصل إلى مدخل المنزل .

في ذلك اليوم تناولت ألد حلوى في حياتي , فأنا لم يسبق لي أن تذوقت شيئا ما عدى كعك أمي الذي لا طعم له , حتى أختي فاطمة لم تكن تهتم بصناعة الحلويات فطهو الغداء و العشاء كان يستهلك كل وقتها , أحيانا كانت تصنع الكعك و طبعا هو لا يقارن مع حلوى عيد الميلاد , لقد تساءلت دائما لما تُصنع الحلوى لعيد الميلاد ؟ لكننا لم نكن نحتفل بأعياد الميلاد , الأمر و ما فيه أنه لم يكن من عادات أسرنا فأبي و أمي لم يحتفلا في صغرهما لذا كُتب الأمر على أطفالهما أيضا .

استمرتُ في القدوم أسبوعيا لمنحي الدروس و أنا استمررت في الدراسة من المنزل و هو أمر لم يكن بذلك السوء .

أمضيت ستة شهور على هذا النحو الى حين استطعت إزالة الجبيرة و السير من جديد .  
جاء الأسبوع الموعد , جاءت الخمسة أيام التي ستحدد مستقبلتي المهني , أحيانا تكون ثانية  
واحدة من حياتك كافية لتحديد حياتك كلها لذا لا يجب الاستخفاف بتلك الأيام الخمس .  
مر الأسبوع دون أية مفاجآت و استطعت أن أرتاح بعد أن أبليتُ حسنا على أوراق الامتحانات .

بعد هذا الأسبوع قطعْتُ الفتاة الجديدة صلتها بي تماما , لم تعد تتصل كما اعتادتُ أن تفعل  
و لم تمر على منزلنا منذ أسبوعين , شعرت بشعور سيء , فكرت أنها قد تكون مريضة أو أنها  
لم تبلي جيدا في الامتحانات لذا أغلقت على نفسها في المنزل .

بما أنني أستطيع السير مجددا لما لا أدخل المطبخ و أحاول تحضير الحلوى , سأجعلها مثل  
التي أحضرتها لي في أول زيارة لها , سأفاجئها أنا هذه المرة و أزورها في منزلها .

سألتُ أختي فاطمة أن تساعدني بالطبع , فأنا عديمة الخبرة في المطبخ و تلقي بعض المساعدة  
لا يُعتبر غشا , بل هو مثل الاتصال بصديق .

أعددتنا كعكة بالشكولاتة , فكرنا أن نكتب عليها عبارة ما لكننا لم نستطع تخمين أي شيء ,  
قلت بعد تفكير مطول : لنكتب عطلة سعيدة ..

أعجبتُ العبارة فاطمة فشرعتُ في كتابتها بكريمة وردية اللون ثم نثرت بعض قطع المكسرات  
فوقها فبدا شكلها فخما حقا , هكذا سأقلل من كمية الاحراج التي تلقيتها طول تلك الستة  
أشهر , فأحيانا كانت تأتي لندرس معا و لم يكن في المطبخ أي شيء لتقديمه عدى الشاي ,  
لكنها لم تشربه يوما , دائما ما تترك الكأس مملوءا , هي حتى لم تتذوقه لتعلم إن كان بهذا  
السوء أو لا , حسنا هذا لا يهم الآن فنحن صديقتان و لا يوجد حرج بين الأصدقاء .

بعدها أمضتُ الكعكة ليلة كاملة في الثلاجة و بعد الخوض في الكثير من المعارك حتى أمتنع  
الجميع من افتراسها استطعت الفوز في الحرب و أبقيت الكعكة سليمة حتى اليوم الموعد  
الذي جهزت فيه كل شيء للذهاب إلى منزل الفتاة الجديدة و الذي يعتبر منزل رئيس البلدية  
الجديد .

بينما أسير في تلك الطرقات المليئة بالحفر محاولة الحفاظ على توازني كي لا أوقع الكعكة و أفسد كل شيء .

وصلت بأمان إلى المنزل أخيرا , طرقت الباب ثم أدركت أنه يوجد جرس فقمتم بالضغط عليه كثيرا حتى فتحت امرأة ما , بدت راقية جدا , ترتدي ملابس جيدة , تساءلتُ بيني وبين نفسي . , إن كان هذا ما ترتديه في المنزل فكيف ستكون ملابس الخروج خاصتها , أمر غريب .

ابتسمتُ لي و سألتني : نعم .. كيف أساعدك ؟

\_ إسمي إيمان هل سارة موجودة ؟

\_ هل أنت صديقتها ؟

\_ أجل نحن ندرس في نفس القسم .

\_ أجل هي موجودة تفضلي .

لقد شعرتُ بالضيق و لم أستطع تقديم نفسي . كصديقتها فالأمر سيكون منطقياً أكثر لو كنا زميلتي دراسة لا أكثر .

دخلتُ المنزل و تبعتها , كان كبيراً تتوسطه سلالم كبيرة و عالية , استمرتُ المرأة في الثثرة بينما كنتُ أوجه ناظري على الأثاث الفاخر و أتمعن في كل صغيرة و كبيرة أراها في هذا المنزل .

\_ سعيدة أن سارة استطاعتُ تكوين بعض الصداقات هنا .. حين انتقلتُ الى هنا كانت تبدو حزينة جدا لفراق صديقاتها في العاصمة .. جيد أنها تخطتُ الأمر .

دخلتُ إلى غرفة الجلوس أين جلستُ في انتظار قدمها , أعطيتُ والدتها الكعكة بتردد , فبعد ما رأيته عاد شعور الاحراج ليخالجني , أخذتها من يدي بلامبالاة و قالت : انتظريها هنا ستنزل في الحال .

سمعتها تنادياها : سارة .. سارة صديقتك جاءت للزيارة .

بعدة خمس دقائق بالضبط كنتُ أجلس و الفتاة الجديدة في صالة منزلها نحتمي . العصير بجانب أنواع من الحلويات لم ارها من قبل إلا على شاشة التلفاز , قالتُ والدتها أنها صنعتها بنفسها , مع أنها لا تبدو كصنع منزلي .

حين غادرتُ استطعنا الحديث براحة و أعني براحة هو قول أشياء مختلفة .

سألته بوجه لم أعهد أن أراها تتخذ في أي موقف كان : ما الأمر لماذا أتيت اليوم ؟

\_ الحقيقة أنني لم أرك منذ مدة .. ربما منذ انتهت الامتحانات لذا تساءلت إن كنت مريضة أو شيئاً ما .. لقد أحضرت لك كعكة صنعتها بنفسني .. آمل أن تعجبك .

نظرتُ لي بلا مبالاة ثم نهضتُ فجأة و قالتُ : إذا انتهيت يمكنك الذهاب فكما ترين أنا بخير .

كل ما فكرت فيه تلك اللحظة هو , ما الذي فعلته بحق الجحيم , لماذا تتحدث معي بهذه الطريقة , سألتُ : ما الأمر هل فعلت أمراً أغضبك .. ألم يكن علي المجيء .. حسناً أنا آسفة لأنني قلقت عليك و لكن هذا ليس تصرفاً تقابليني به .

\_ ألم تفهمي بعد يا فتاة القرية .. أنا لم أعتبرك يوماً صديقتي .. لكنني كنت أريد دخول كلية الطب و أنت كنت الأذكي في الصف لا أكثر و لا أقل .

لا أصدق ما تقوله هل أرغمتُ نفسها للمجيء إلى منزلي ستة أشهر فقط من أجل الدراسة .

تابعتُ دون أن تُظهر أية شفقة على دموعي : لقد جعلتِ الأمور أصعب حين كسرتِ ساقك .. لم أكن أريد المجيء إلى منزلك لكنني كنت مجبرة .. على كل .. شكراً لمساعدتي .

سألت كأنني أبحث عن أي حبل أتشبث فيه كي أجد أملاً في صداقتنا , أملاً و لو صغيراً أن كل شيء لم يكن كذبا : هل بسبب ما قالته الفتيات عني .. ظننت أنك لا تهتمين .

\_ كيف لا أهتم لقد بدأتُ في إطلاق الإشاعات عني بسببك .. لا أريد أن ينتهي بي الحال مثلك .

\_ كيف يمكنك قول ذلك .. لقد كنت أتوسل أسرتي يومياً كي لا يخلقوا أي مشكلة بينما تكونين عندنا .. تحولت إلى ابنة مطيعة كي لا يخرجوني أمامك .. كنت أعلم أن الأمر كان صعباً عليك و لكنه كان صعباً علي أيضاً فكما تعلمين لا أحد يختار عائلته لذا حاولت أن أكون أنا على الأقل لاثقة بك .. فأنا لم أرد أن أخسرك حقاً .

لم أرد سماع أي كلمة أخرى منها فأسرعت في الخروج من هناك بسرعة , عدت إلى المنزل و قد كان الجميع ينتظر مني أن أروي لهم زيارتي المنتظرة لكنني كذبت و أخبرتهم أنني لم أجدها في

المنزل فسلمتهم الكعكة و غادرت , لم يشكّوا في شيء , ندمهم الوحيد كان عدم تذوق الكعكة , لذا وعدتهم أن أصنع واحدة أخرى , هكذا سيكفون عن إزعاجي .

أدركتُ متأخرة أنه لا توجد عائلة متماسكة , كل الأسر لديها مشاكلها الخاصة و مثال العائلة السعيدة التي نراها على التلفاز هي مجرد وهم لا أكثر , لقد تعلمت أن أحب عائلتي مع الوقت و لسبب ما تحسنت الأمور عندها , توفي زوج فاطمة و أولاده في حادث سيارة لذا تقاسمت هي و زوجاته الميراث و حصلن على مال جيد لقاء تحملهن لرجل مثله , أما زهرة فأصبحت مدرّسة خصوصية معروفة في القرية , فقد بدأت في تدريس الفتيات في منزلنا و بمرور الزمن نسي- الجميع ما حصل لذا استطاعت أن تعود زهرة لحياتها العادية , أنهت دراستها و اصبحت أستاذة لغة عربية كما أرادت دائما .

استمر أخوأي في العيش بالطريقة التي عاشا بها من قبل و لم يتغير شيء بالنسبة لهما و لم نسمع عن مريم مجددا أبدا , كنت أواظب على مشاهدة المسابقات الرياضية و أتبع أخبار الرياضة النسوية بشكل متواصل علي أراها تركض مثلما تعودت أن تفعل في ساحة المدرسة , لكنني لم أجد شيئا , حتى الشرطة لم تستطع العثور عليها , فاشتبهوا عندها أنها غيرت هويتها , ربما تعيش الآن تحت اسم و لقب آخرين , لا يهم ما هو اسمها الآن , المهم أنها حية , تمسكت بهذه الفكرة إلى الأبد أنا و شقيقتاي , على أمل أن نلقاها يوما ما في المستقبل , و نجتمع في جلسة أخرى للدعاء على كل من آلمنا يوما , عندها و كالعادة ستكون أفكار مريم هي الأكثر امتاعا و جرأة من بين أفكارنا جميعا .

# القصة الثالثة

## الحب باسم الخيانة

سأل المُقدم: إذاً.. كيف بدأ الأمر؟ ما الذي جعلك تكتبين كتابك الأول و الذي لاق نجاحا كبيرا بعد إصداره على المستوى العربي .. أريد فقط أن أذكر الحاضرين معنا أن كتاب الدكتور نوال جواهري بعنوان "أسرار الحب اللانهائي" قد بيعت منه خمسة ملايين نسخة حتى الآن .. في رأيي إن كلمة نجاح قد تكون ظالمة قليلا في حق الكتاب .. لذا أنا و الجمهور بالطبع .. نريد أن نعرف كيف بدأ الأمر معك .. ماذا حصل حتى قررت أن تُولفي كتابا كهذا؟ خاصة أن كتب التنمية البشرية ليست رائجة ك.. دعينا نقول الروايات مثلا .. خذي كل وقتك للإجابة فالجمهور يحب الاستماع لحديثك دكتورة نوال هذا ما يُفسر الجمع الكثيف المتواجد هنا .. الكل متشوق لسماع قصتك .. لك الكلمة .

\_ أولا أريد أن أشكرك على الاستضافة أنت و كل المشرفين على هذا الملتقى .. كما و أشكر الجميع على حضورهم هنا الليلة أنا حقا أقدر كل الحب و الدعم الذي أتلقيه من قبلكم شكرا جزيلاً .. أما بشأن سؤالك فلا شيء مميز في قصتي حقيقةً .. كل شيء بدأ كما يبدأ أي شيء .. كان حلما .. قصة حب .. من منا لم يحلم بأن يعيش قصة حب .. كلنا تمنينا أن نحس بتلك المشاعر و لو مرة واحدة في العمر .. إنه أحد تلك الأحلام المشتركة .. مثل ذلك الحلم الذي نرى فيه جميعنا أننا من أثرياء العالم و كيف غيرنا حياتنا الحالية بذلك المال .

لكن مثلما هناك معيقات للحصول على المال , هناك معيقات للحصول على الحب , و أهم تلك المعيقات هي جهلنا لكيفية التعامل معه , رجلا أو امرأة , كلنا نُخطئ في التعامل معه بدون استثناء , حتى أذكى أذكى العالم قد خسروا فرصة أو اثنتين في الحب , لكنهم لا يحبون

أن يعترفوا عادة , بدل ذلك يُسميها البعض تجربة فاشلة , مع أنها لم تكن لتكون فاشلة لو أنهم تعاملوا معها بذكاء أكبر .

هناك من ينسب الغباء إلى الحب , إنه بريء من ذلك , ما ذنبه لو كان الأشخاص الذين يقعون في الحب أغبياء , هل تقول أن المعلم غبي إن كان تلامذته حمقى , لا يهم , لقد تعب الحب منا و نحن لم نتعب , رغم جهلنا لأسراره لازلنا نحاول التعلم , مع الوقت , تأتي النظريات و الطرق و الأسرار لعلاقة ناجحة , طبعاً تأتي بالخبرة المكتسبة من التجارب الفاشلة , ليس علينا أن نستسلم , أنا أو من أنه يوماً ما سيكون الجميع مدركين لأسرار الحب , و حينها لن نسمع بقضايا الطلاق أو الفراق , و حينها أيضاً سندرك إن كان الحب هو حقا كل ما نحتاجه لزواج ناجح أم أنه مجرد كلام أفلام .

لكن قبل أن نصل إلى هذا المستوى علينا أن نسلك طريقاً طويلة , و هنا تكمن مهمتي , أنا واحدة من أولئك الذين يحاولون إحداث التغيير , حتى مع وجود أشخاص لا يقدرّون مجهودي أو لا يؤمنون بفعالية نصائحي .

أنا أكون خبيرة في العلاقات العاطفية , هل لأنني خضت الكثير من العلاقات , ربما , أعتقد أن المُجرب مفيدٌ أكثر من دارس الكتب , الفرق أن الثاني قرأ بينما الأول رأى , فبعدما اكتسبت الخبرة الكافية , و بعدما رأيت كيف يعاني معظم البشر خاصة في مجتمعنا في كيفية جعل علاقته مع شريكه أسعد و أحسن , و من هذا الصدد عهدت على نفسي أنني سأبدأ في تقديم دورات مجانية أساعدُ بها أي شخص ليتخطى فشله العاطفي و يبدأ أخيراً تجربة ناجحة , نظمت ندوات و قدمت صفوفاً في جميع أنحاء البلد , زرت ولايات عدة من مختلف مناطق الوطن و سمعت شكاوي الكثيرين كما يفعل الوزراء تماماً , الفرق بيننا أنني كنت أهتم حقا لتلك الشكاوي , و قد أبقى مستيقظة ليلة كاملة مُحاولاً إيجاد حلول لها و المساعدة لأبعد ما أمكنني , أحياناً أعقد ندواتٍ تكون فيها الكراسي الفارغة التي تستمع أكثر من الكراسي المملوءة , و مع هذا لم أفقد عزيمتي يوماً .

أكثر ما كان يُعجب الحضور هو أن تُلخص لهم تقنيات إذا اتبعوها ستُحل جميع مشاكلهم العاطفية , لكنني دائماً ما أخبرهم أن الحب ليس مثل الرياضيات , ليس لديه قواعد نسير عليها , كل فرد و له شخصيته الخاصة , لذا الحلول ستكون مختلفة , فاشلة لدى البعض وناجحة لدى البعض الآخر , لكن مع هذا لم أكن أرفض ما يطلبه الجمهور و حاولت تقديم نصائح عامة يمكن أن تنجح مع الجميع .

لقد مللنا من الأفلام التي تكذب في كل شيء , لم يكن للبطلين أن يقعا في الحب لو أن كاتب السيناريو لم يكتب ذلك , لم يُقدموا يوما أسبابا وجيهة لوجود علاقة حب قوية كتلك , رغم كل المشاكل التي تتخلل علاقتهما في الفيلم إلا أنهما يبقيان متماسكين .

قد يكون جعل القصة ممتعة أكثر هو عذرا وجيها لكاتب السيناريو إلا أنه جعل عقول البشر مشوشة إلى حد ما في هذا الخصوص .

لا تأخذوا كلامي على محمل الجد , فحتى مع كل بهارات الخيال التي تُضاف إلى قصص الحب , يمكن أن نجد قصصا شبيهة لها في حياتنا هذه , فالواقع لا يخلوا من الخيال , كم من مرة سمعنا قصصا يصعب تصديقها لكنها وقعت بالفعل , هذا ما أعنيه حين أقول لا تفقدوا الأمل في عيش قصة حب مثيرة مثل قصص الافلام .

و أنا مثل الأستاذ لن أكذب على تلاميذي أبدا , لم أكن أفكر بهذه الطريقة حتى تلقيت من حسابين مختلفين , بعض الرسائل الغريبة على الخاص في صفحتي الرسمية على مواقع التواصل الاجتماعي , وقد استوقفتني من بين جميع الرسائل التي تصلني لأنها كانت تروي قصة حب حزينة .

بدأت نظراتُ الجمهور الفضولية تثير حماس نوال أكثر , سألتهم وكلها أمل أن يجيبوا بنعم : هل تريدون أن أخبركم بمحتوى الرسائل أم أتابع سرد سيرة حياتي المملة ؟

قال المقدم بعدما سمع كلمة رسالة لأكثر من مرة : ليس لدي شك في أن لديك سيرة حياة مثيرة للاهتمام لكن أعتقد أنك جعلت الجمهور متشوقا جدا لتلك الرسائل .. ما رأيك .. ربما تجدين معنا ما ألهمك حقا للكتابة .

أجابت نوال بثقة : أنا أعلم مقدا ما ألهمني .. ما سأخبركم به ليس تجربة شخصية لكنني شعرت بها كأنها تخصني بسبب صدق ما قرأته .. آمل أن تفكروا في الأمر معي لأنني فكرت فيه لشهور قبل كتابة الكتاب .

سأل المقدم : هل تحتفظين بالرسائل على هاتفك ؟ بالطبع لا نريد اسم حساب المُرسل .. هويته ستبقى مجهولة و لن نجبرك على الإفصاح عنها .

أجابتُ نوال بكل ثقة مجددا : كل ما يمكنني اخبارك به عن الحسابين أنهما كانا لرجل و امرأة .. كانا حسابين خاصين و لم تذكر فيهما الكثير من المعلومات .

أخرجتُ نوال هاتفها و اتجهت للتطبيق الذي تحفظ فيه مضمون الرسائل , أول رسالة , نظرتُ إليها جيدا و حاولت تذكر اليوم الذي قرأتها فيه أول مرة .

\_عُدت من العمل ذلك اليوم بمنتهى التعب , و قد كنتُ على وشك النوم حين أصدر هاتفني صوت رسالة واردة , نظرتُ فوجدت إشعارا من تطبيقي المفضل , حين علمت أنها رسالة من شخص مجهول حاولت تجاهلها فأنا أتلقى الرسائل من متابعي باستمرار , و غالبا ما تكون رسائلهم عبارة عن أسئلة و استفسارات , منهم من يُقدّم معلوماتٍ خاصة جدا بشأن مشكلته و منهم من يبقيها غامضة , و أنا لا أكذب حين أقول أنني أقرأها و أرد على جميعها حتى لو كانت سخيفة أحيانا , و أعتقد أن احدى أسرار النجاح هو ألا نتجاهل هذه الأمور التي تبدو صغيرة , إما بسبب كسلنا أو ثقتنا الزائفة في أنفسنا , و حتى مع تفكيري هذا إلا أنني كنت متعبة جدا يومها لذا وضعت هاتفني في وضع صامت و أغمضت عيني محاولة النوم , لكنني بصورة ما وجدت نفسي أفتح التطبيق و أقرأ الرسالة و يا ليتني لم أفعل فقد شغلتنى و منعت عني النوم بعدها , كانت من فتاة ما , فتاة لم ألتقي بها يوما لكنها منحتني ثقتها فجأة , شرعتُ في قراءة الرسالة :

أنا أتألم

ألم الانتظار قاتل

أصبح الهواء الذي أنفسه لا يفيد دورتي الدموية إذا لم أكن أتشاركه معه

بل أصبح غازا ساما

لم يكفيني هواء تلك الساعات القليلة التي قضيتها معه

لا أزال متعطشة للمزيد

ما هو هذا التأثير الغريب ؟

هل هو نوع جديد من العذاب ؟

ليس جديدا على حد علمي إنه موجود منذ بداية التكوين

عندما تكفيني ابتسامة منه لأُخلق من جديد

تكون لا مبالاته بي موتا مكررا

إنه هو

متى يكون وجوده يكفيني و كلامه رفاهية بالنسبة لي

من غيره يفعل هذا بي

التفكير بتفاصيل لقائه

قبل عند و بعد ترهقني

و لا تسير مثلما أحلم

أرغب عندها بإعادة الزمن

هل هذا تعريف كاف؟

لا

لا حدود له

لا تعريف له

قد أشعر بالكثير في ثانية واحدة و أنا معه و أكثر و أنا بعيدة عنه

إن كان قلب الإنسان منزلا فسيكون ذلك الشخص ساكنه

يفعل به ما يشاء

يُزينه , يَحْكُمه , يُعَمِّرُ بداخله و يرممه مع السنين

أو يهدمه تماما

هذا ما يحصل عليه الإنسان إذا وضع شخصا هناك

ليتني أعلم ما يفكر به اتجاهي

ليتني أغمض عيني و افتحهما فيكون حلما ساذجا لا معنى له

ليتني أضغط على زر لإيقاف قلبي

أنا لا أعلم حقا ما علي فعله لأشغل بالي وأبعده عن التفكير به كل يوم , كل دقيقة

قبل النوم و بعد الاستيقاظ

و أنا انظر إليه , و أنا لا أنظر إليه

و هو يتكلم و هو يسير و هو يبتسم و هو يقرأ و هو يمزح و هو ينصت و هو يحيكي

و هي تتكلم عنه

لأكن هاتفه

لأذهب إلى كل مكان معه

الأمر مزعج أليس كذلك ؟

حسنا كل لحظة لا أكون فيها معه

هي لحظة لا معنى لها

أو ليس لها معنى كبير بالنسبة لي

هذا مبالغ فيه , ربما

و ربما هذا وصف دقيق لما أشعر به

إن فشلت فسأخذل نفسي ثانيا

و سأخذله أولا

إن فشلت فلن أسامح نفسي أولا

و سأطلب العفو منه ثانيا

انعكاس صورته في مخيلتي أصبح ديكورا دائما لأفكاري

السعادة معه لا تكفي

حتى الحزن معه أريده

لقد صرت غيورة على غير عادتي

ابتسامتي في تلك اللحظة تعني تألمي في تلك الحالة

لذا احذر من ابتسامة فتاة متألمة

لا تعلم كم من الحقد ستضمرك

لم يبق الكثير على فراقه -لا سمح الله- أقول لنفسي

ستنسينه صدقيني و هذا الفراق هو ما تحتاجينه لذلك

ماذا عنه هل سيحزن لفراقي؟

سينسأكِ فأنت نقطة لا يتذكرها أحد

سوى محبي النقاط الصغيرة .

هنا انتهت أولى رسائلها , ظننتُ أنها لن ترسل مجددا لكنها فعلت , على مدى شهر أرسلت لي الرسائل من حين لآخر , كنت أنتظرها مثلما ننتظر حلقات مسلسلنا لتعرض بفارغ الصبر , أنا لم أجب عن أي منها , فهي لم تطرح أي سؤال كما يفعل الآخرون , لقد ظلت تخبرني يائسة مثل مريض يخبر طبيبه بتطورات مرضه و إن كان قد تحسن وضعه أم زاد سوءا , بعد أسبوع أرسلت لي رسالة أخرى و قد فتحتهُها على عجل عكس سابقتها :

الزمن يشفي

لكن شفاؤه مطول

أنا كالشخص المكسور

أحتاج شهورا و ربما سنين

لا تسألني عن يوم محدد

فأنا ليس عندي يقين

أنا أعيش و السنين  
هي التي تحدد إن كنت سأشفى  
أم أبقى على فراشي سقيم  
متى فترة العلاج  
و إلى متى فترة المرض  
أريد أن ينتهي داخلي كما لم أبدأ أنا داخله  
أريد أن يقسو علي كما قسوت عليه أنا خارجه  
لأمد يدي  
عله يُمسكها  
مسكاً خفيفة أو قوية , لا يهم  
ففي النهاية هي يده  
يده ممدودة للمساعدة  
فمن أنا لأمسكها  
فأنا لا أحتاج للمساعدة  
أنا أحتاجه هو  
أريد البكاء  
هذا التفكير يُتعبني  
لا ليس هذا التفكير  
بل التفكير به يُتعبني  
هو لا يُبارح فكري للحظة

أنا لا أنساه سوى و أنا نائمة

أنا أتحدثُ مع نفسي

أصبحتُ مجنونة بسببه

تأثيره هذا قوي

لديه جاذبية ساحرة

أبحث في ثناياها فلا أجد الجواب

أسأله و أنا أنظرُ إليه دون أن أفتح فمي

ما هو سرّك؟

ربما لو أطلعتني لاستطعت إيجاد علاج لمرضي

مرضي الذي هو أنت

أنت معي دائما

قلقي عليك و فضولي اتجاهك لا حدود لهما

ماذا يفعل , أين هو , هل هو نائم يا ترى؟

صرت أرى الجميع أنت

و أنت الجميع

أنا أبحث عنك في الأرجاء بكل حواسي

أريد سماع صوتك و رؤيتك و تحسس رائحتك

تكفيني

أتخيلك واقفا أمامي و أتخيل نفسي و أنا أكلمك

أبحث في كلماتي عما يشبهك

لا عما يشبهني

كلما اشتقتُ لك أسترجع لحظات حديثنا القصير

الذي يتمحور دوماً عن أمور تافهة بالنسبة لي

إنها لا تعبر عني

لا تجعلك تُدرك من أكون أنا و هذا يُحزني

ليس هذا فقط

صرتُ أغازُ من أي شخص رآك و أنا لم أركُ

حتى مع اشتياقي لرؤية وجهك المبتسم

إلا أنني حين أقف أمامك لا أنظر فيه

لا أنظر أبداً

, أخاف إن نظرت أن تسحرنني فلا أستطيع إزاحة عيني عنك مجدداً

سمّها ما شئتُ

لكني أُسمي هذا مرضاً

أخاف أن أمرض أكثر إن رأيت هذا الوجه الذي أريد رسمه في ورقة لأنظر فيها كلما اشتقت

لرؤيتك

أخاف منك

أنت خطير

و أصبحت نقطة ضعفي حالياً و أنا لا أستطيع مجابهتكُ

لا تحبني

يكفي ألا تكرهني

فأنا مريضة لا أحتاج إلى شفقتك

ولا إلى ظلمك و قسوتك

أنت تعيش حياتك

و أنا أريد عيشها أيضا

أنت تظن أن الأمر سهل

و أنا أراه مستحيلا

لا صعبا , فقط مستحيلا

أنظر حولك

سترى الكثيرات

أما أنا فلا أرى سواك

أنا لستُ حتى من الكثيرات

أنا أقف بعيدا

لا أريدك أن تراني

لا أريدك أن ترى ما أرى

فعيناي تفضحاني

و تعابير وجهي

لا استطيع إخفاءها

لذا أفضلُ الابتعاد و الاختباء و النظر من بعيد

علك تأتي يوما ما أنت أيضا لتختبئ

فتجدني

حينها ستُحس بما أحسنُ

و تعيشُ ما أعيش

ليس ما عِشْت

فأنا سأظل أعيشُ

و لنُ أموتَ قبلكُ .

كانت تُرسل تلك الرسائل لترتاح قليلا , ربما لم تملك من تخبره بالأمر , أرسلت لي ما أرادتُ  
اخباره به , وضعتني مكانه و قالت في رسالتها التالية التي انتظرتها شهرين كاملين :

ليتني أعلم ما يدور في عقلك ذلك حولي

حتى لو كان لا شيء أريد أن أعلم به

لأستفيق من هذا السبات

الذي مذ رأيتك

و أنا أغرق فيه

كيف يتسنى لي أن أعلمُ

و نحن -ما أجمل هذا الضمير-

لا نتحدث حتى لدقائق

إما بسبب كبريائي و خوفي

أو بسبب كبريائي و خوفي

أنا حقا لم أجد سببا غيرهما

فكبريائي يمنعني أن أكون من الأخريات و يدفعني بعيدا عنك

يحميني كما يفعل دائما

إنه يحميني من تأنيب الضمير

هذا ما قاله لي

لكن الضمير يؤنبني حتى مع حمايته المزعومة

كبرياء المرأة أخطر من كل مخاطر العالم

قد يُنقِصُ من جاذبيتها حتى

أنا حتى لا أتقبل فكرة كوني مريضة

كل هذا بسبب كبريائي

فأنا لا أمرضُ , أنا أمرضُ أنا أعالجُ

, أنا لا أمرضُ خاصة من قبله

ماذا عن الخوف ؟

الخوف , إنه تهديد الكبرياء

أخاف من أن أنجر أكثر

أخاف أن يتعدى هذا مرحلة المرض و يصبح هوسا

أخافُ ألا يُبالي بي

إذا زال الاهتمام يموت الإنسان

أخاف أن أكون غير مرئية له

أمرا لا يراه و لا يتذكره

أمرا يائسا متكبرا يفقد معاملته الصبر فيتركه

أنا آسفة لكبريائي و للكثير من مبادئ

لقد تجاوزتكم و دخلت الممنوع

سامحوني .

بعد هذه الرسالة بدأتُ أشعر بالخوف حقا , تساءلت مرارا ما الذي تعاني منه هذه الفتاة  
لتشعر بهذه الطريقة , لكن كل رسالة كانت ترسلها كانت تضيف علي عُقدة أصعب من التي  
سبقتها فأعجز عن حلها و اكتشاف المشكلة , كأن الأمور كانت تَصْعُبُ عليها فتُصعَّبُها علي  
بدورها , رسالتها الأخيرة أرسلتها في ليلة نهاية السنة :

ليتك ترى

أبعد مما أرى

ليت أوهامي تختفي

و أعود كما جرى

كعادتي

لا تبرح مكانك

فأنا آتية

بخطوات ثابتة نادمة

كيف تُريدني أن أكون

كيف تُريد كلامي

ما الذي يُعجبك

و ما الذي تكرهه

ساعدني و أجبني

فأنا لا أقرأ الأفكار

أنا أقرأ الشفاه فحسب

لقد ورطتني في أمور ليست لي خبرة فيها

لذا من واجبك تقديم يد العون  
ماذا أقول كي أرى الابتسامة  
وماذا لا أقول كي لا أرى الغضب  
أنظُر لي فأنا لا أنظُر إليك  
الساحة فارغة من أجلك

لذا تأملني

كما أتأملك في خيالي

لا تُسيئ الظن بي

فبعض الظن إثم

لا تأثم من أجلي

لا بل بسببي

أنا لست مختلفة كما تظن

أنا أشبهك

فقط عليك الحديث و سترى

أنا متشابهان

أنا نعرف بعضنا منذ سنين مضت

لا تحزن

فقلبي الصغير لا يتحمل

لا تفرح كثيرا

فقلبي الصغير لا يتحمل أيضا

كن قويا كعادتك  
فأنا أحب الأقوياء  
سأكون قوية  
فقد تكون مثلي  
تحب الأقوياء  
إنَّ الانتظار صعب  
أريدُ الوصول إلى نقطة التحول  
لكنها بعيدة تستغرق وقتا  
لذا سأصبرُ  
ليس لأنه لا خيار آخرُ  
بل لأنني أريد الأمور بهذا الشكلُ  
حسنا ؟

هنا توقفتُ عن إرسال الرسائل , فكرتُ أنها تعاقبني لأنني لم أُرَدِّ عليها , أردتُ أن أخبرها بأني أريدُ لقاءها لكن أمرا ما منعي .

سأل المقدم : ما الذي منعك ماذا كان الأمر ؟

أجابتُ بعد التفكير : أظن أنها شكوكي .. حينما انقطعت رسائلها استطعت استجماع أفكارني و حاولت ربط الأمور .. و الحقيقة لم تكن هي وحدها من شغل بالي .. فرسائل الرجل لم تخلو من الابهام أيضا .. لكن يمكنني القول أنها منحتني بعض الأمل .

سأل المقدم مجددا : اه أجل لقد ذكرته في البداية .. هل أرسل لك رسائلًا أيضا .. هل يُمكنك قراءتها لنا ؟

أجابته و هي تفتح أولى رسائل الحساب الثاني : بالطبع .. رسالته الأولى جاءت كالتالي :

لقد كنتُ دوماً على الطريق الصحيح

لقد كانت جميع اختياراتي صائبة

لم أندم يوماً على عمل قمتُ به

أو قولٍ تلفظ به لساني

لقد كنتُ دوماً على صواب

لدرجة أنني أشك إن كنتُ أخطئ كالآخرين

لقد كنتُ ناجحاً في كل شيء أردتُ النجاح فيه

أنا أملك كل شيء

لم أنظر لأحد بنظرة تملؤها الغيرة أو الكره

كما يُقال

كنت الشخص المثالي الذي يراه الآخرون قدوة

لكن كما يقال

لكل شيء مرة أولى

أنا لم أومن بهذا

ظننت أن مرتي الأولى لن تأتي أبداً

أظن أنها المرة الأولى التي أخطأت فيها

لقد جعلتني أدرك أنني مع الشخص الخطأ

لا بل جعلتني أشعر أن كل علاقتي التي مرت كانت مع الشخص الخطأ

بل ربما أنا الشخص الخطأ في حياة الجميع سوى حياتها

كانت مختلفة

كانت نقطة ضعفي التي أفتخر بامتلاكها

كانت النجمة الوحيدة في سماءي الفارغة

لقد جعلت كل نجاحاتي لا شيء إذا لم تكن من ضمنها

فما فائدة امتلاك كل شيء

ما عداها

سأكون فقيرا وسط الملايين

وقبيحا وسط المعجبين

غيبا يسير وهو يتمعن شهاداته

لكنها كلها لا تقارن بامتلاك شهادتها

ماذا يعني النجاح

إنّ فشل فقدانها يسأل

تلك كانت أول مرة لا أدرك فيها ما هو الصواب

وما هو الخطأ

تلك كانت نهاية مثاليتي

وبدايتي المثالية معها

لم تكن تعي قيمتها

ولا أنا أيضا

كانت ثمينة لدرجة مجهولة لا يعلمها أحد

لحسن الحظ

لأنهم لو علموا لما تركوها لي  
عن سوء حظها و حسن حظي أتحدث  
ليتها ترى ما أراه حين أنظر إليها  
ليتها تشعر بما أشعر حين تتكلم  
لو أنها علمت  
لما تركتني  
عن حسن حظها و سوء حظي أتحدث .

أصابتني الدهشة مما كتبه صاحب هذا الحساب , من النادر أن أتلقى رسالة كهذه من رجل ,  
فالشائع أكثر أن أتلقاها من قبل امرأة , لقد منحني رسالته الأمل في الرجال حقا , لأنه دائما ما  
يبدو أن النساء وحدهن من يتألمن بسبب الحب , لذا من الرائع أن نرى رجلا يتألم بدوره و  
يعترف بذلك بهذا الشكل الصارخ , لم أزد عليه هو أيضا لأنه لم يطرح أي استفسار لذا فعلت  
به ما فعلته بالفتاة , تركته يستجمع أفكاره ثم يعود إلي ثانية لأفهم الأمر بوضوح أكبر , رسالته  
الثانية كانت بعد أربعة أشهر , هذا خيب أملي قليلا ففكرت أنه ربما مر بنزوة في ذلك اليوم و  
نسيها في اليوم ذاته إلا أنه فاجئني و جعلني أشعرُ بالسوء لما ظننته حوله , فقد قال :

إضحكي

رغم أن هذا يغرس الشوك في أحشائي

مع هذا اضحكي

فألم ضحكك

أهون من بكائك

النظر إليك أصبح كمن يتربح خروج صاحب المنزل حتى يسطو عليه

فقد أصبحت أسطو عليك حين أراك غير منتبهة

أخطفُ بعض الصور حتى تبقي في ذاكرتي  
أعبرُ و أنا أنصتُ لحديثك أكثر من حديث محدثي

هل هذه أنا التي أريدُ ؟

ربما إنها هي التي أريدُ

لما هي غير مهتمة ؟

ألا أستحق حتى الشفقة

ربما لأنها تعي بكبريائي

و من غيره الذي فرقنا

وبنى جسرا بيننا

ثم وقف يختبرني إن كنتُ سأضعُفُ و أسير فيه نحوك

أنا لا أثق في كبريائي

أظن أنه سيحطم الجسر بمجرد وقوفي

فلكبريائي كبرياء أكبر

أريدُ من يقول أني مميز

إن لم يكن وجودك معي يصيح بهذا

فمن أين أحصلُ على التميز في غيابك .

شعرتُ أنني مثل الغبية بين رسائله , فرغم خبرتي الواسعة إلا أنني لم أستطع أن أستوعب  
سوى القليل مما كان يرمي إليه , رسالته الثالثة كانت قصيرة و استغرقت شهورا لتصل إلي ,  
قال لي فيها :

عقلي فارغ تماما

أين ذهبت أفكاري يا ترى

هل هجرتني أخيرا

ستعود أنا واثقٌ منها

أخبروها أنني لا أشتاقُ إليها

أنا فقط تعودتُ عليها

لا تُخبروها أنني تعودتُ عليها

ستظنُّ أنّ راحتي أصبحت بين يديها

هل هي أفكاري حقا من تعودتُ عليها

أم أنها شخص عودني عليها

أو حلم سمح لي بالتفكير فيها

سأمسحها يوما

كأنها أحرف كُتبت على الحائط و سهلُ التخلص منها

واثق لهذه الدرجة أليس ذلك سخيفا

حسننا على الأقل أنا صادق في هذا

أنا أريد تركها

لكنني لا استطيع

لماذا ؟

ببساطة لأنني تعودت عليها .

لم تكن رسالته الأخيرة طويلة أيضا , أرسلها هو أيضا في ليلة رأس السنة على الساعة الثانية عشرة تماما كأنها رسالة وداع , ورغم شدة إرهاقي فقد كنتُ احتفلُ مع العائلة وقتها , إلا أنني قرأتها في نفس اللحظة , إنه الفضول ليس أكثر , أرسل الآتي :

أبحثُ طويلا

ولا أظن البحث سينتهي يوما

ربما أنا سأنتهي يوما

لكن البحث سيستمر من دوني

أحبُ النظر إلى السماء

تشعري بالتميز

أشعر بها وهي تكلمني

على عكس الجميع

إنها تخاطبني لوحدي

إنها تهتف باسمي حين تراني

تناديني لانتبه لها

لأنظر نحوها

بعينين تملأهما براءة تراها وحدها

بنفس يتصاعد لجمال منظرها

أنا أقدرُها

إنها الأجل في نظري

تقول أنها جميلة في أماكن أخرى بمستوى آخر

لذا وعدتها

أنني سأراها بجمالها الكامل في جميع الأماكن

عليّ أن أفي بوعدتي

وإلا ستخاصمني

و سأمل منها يوما

و ستمل مني دوما

و سأفقد تميزي

لا أجرؤ على المخاطرة

أنا أحبها

أنا أحب وجودها

كلماتها الأخيرة تتكرر في أذني

حين يحل الليل

يكون وقتها المفضل لقول ما لا يمكن قوله نهارا

أحب جراتها

تحب براءتي

سمائي الشقية

تحبني .

هل تصدقون الصدفة , أعتقد أن ليلة رأس السنة لها سحرها الخاص , ربما التفكير في بداية جديدة كل نهاية سنة يشكل حافزا كبيرا لنا كي نترك أخطاءنا السابقة , وهذا ما فعلته أيضا , أرسلتُ للفتاة رسالة أخبرتها فيها عن مدى امتناني لما كتبتّه , أحببتُ صدقها و صراحتها , كما و غمرتني السعادة بشغفها , كانت من ألهمني بالفعل للكتابة , طلبتُ منها مقابلي في حفل

التوقيع الذي أقمته في معرض الكتاب بالعاصمة , جلسنا بعد انتهائي من عملي و احتسينا القهوة سويا , كانت فتاة في العشرينات من العمر , جميلة و مرتبة , درست الأدب العربي في الجامعة كما و تقوم بتدريسه في متوسطة قريبة من منزلها , تمالكْتُ نفسي طويلا قبل أن أنهال عليها بالأسئلة , فقد كاد فضولي أن يقتلني بحق , سألتها : حسب ما فهمته من رسائلك أنك تُحبين رجلا ما و لكنك لا تستطيعين إخباره .. هل ما فهمته صحيح ؟

ابتسمتُ و أخذتُ أول رشفة من قهوتها ثم نظرتُ إلى ساعتها و أجابتُ : معكِ حق .. هذا ما حصل بالفعل .

سألتها مجددا : أين التقيتِ به أول مرة ؟

نظرتُ إليّ أخيرا و أجابتني : التقيته في حفل خطوبة صديقتي .

سألتُ من باب الفضول : إذن هل هو صديق العريس ؟

ابتسمتُ ثم قالتُ بنبرة يكسوها الحزن : لا بل كان العريس .

فهمت كل شيء عند هذه النقطة , لا يمكننا اختيار وُجوهنا أو العائلة التي نولد بها , لا يمكننا اختيار فصيلة دمنا و لا يمكننا اختيار الشخص الذي نحبه , نحن فقط نقف ونشاهده يقوم بسرقة قلبنا دون أن ننطق بكلمة , مسكينة هذه المرأة , كانت تتحاشى النظر إليه مثل أي امرأة تخشى الانغماس في الحب أكثر , مثل بسكوتة جميلة الشكل و شهية المذاق يتمنى الجميع أخذ قضمة منها , يأتي هو و يغمسها في كأس الحب فتبدأ في التحلل رويدا رويدا حتى يسقط نصفها المبتل و يبقى النصف الآخر كمجرد حطام شاهد على المأساة .

لها الحق في ذلك إذا , إنها امرأة ذكية , فإن لم تستطع الحصول على الحب فلن تسمح للحب بالحصول عليها أيضا , ستقاوم إلى آخر ذرة كبرياء امتلكتها , من يعلم ما تخوضه هذه المرأة من حرب بين قلبها و عقلها , لا الحب يعلم و لا الحبيب , و هذه كانت أنا قبل سنوات , حين خسرتُ حبي الأول في مواجهة حبه الأول .

سأل المقدم : ما الذي تعيننه سيدة جواهري ؟

\_ ما أعنيه يا سيد رجب أن الرسائل التي قرأتها هي كتاباتي الخاصة و تجربتي الخاصة , كتبتها عندما كنت لا أزال في العشرينات من عمري , و هي مبنية عن وقائع حقيقية حصلت لي , لم

أستطع البوح بمشاعري بشكل آخر لذا فضلت كتابتها في مقدمة الكتاب و الادعاء أنها تعود لفتاة ما , أما رسائل الشاب فهي حقيقية , فقد راسلني بعدما قرأ الكتاب , أرسل لي تلك الرسائل و أخبرني أنه كتبها في الفترة التي تعرف فيها علي و قد شعر بالندم الشديد بعدما علم أن شعوره كان متبادلا بيننا , هو لم يستطع أن يعترف بمشاعره نحوي كي لا يُفسد علاقتي بصديقتي خاصة أنه لم يعرف ماهية شعوري نحوه .

سأل المقدم : إذا ماذا عنك سيدة جواهري .. هل ندمتِ أنتِ لأنك لم تخبريه ؟

\_ سأكون كاذبة كبيرة إن قلت أنني لم أبكي مثل فتاة في الخامسة عندما قرأت رسائله , لم يكن الندم الذي يعتريني لحظتها فقد كبرت على الشعور به , ما أزعجني بحق هو الظلم الذي قمت به لنفسي وقتها , و كم آلمتها و عاتبته على مشاعرها المتخبطة و أفكارها الخاطئة اتجاه خطيب صديقتها , لم أكن أعلم أن هذا هو الحب , لقد كتبت ما شعرت به لأول مرة و انتظرت سنوات لأشعر بمثل تلك الطريقة مع شخص آخر إلا أنني لم أفعل , ذلك الشعور , تلك المشاعر التي اشتاحتي في تلك الفترة من حياتي بقيت في ذاكرتي فقط , لا أشعر بها , أستحضرها لبرهة من الزمن ليس إلا .

تكلم المذيع بغاية التخفيف عنها : لا يمكنني القول يال الأسف .. فهذه التجربة التي عشتها قد نتج عنها كتاب رائع سيستفيد منه الكثيرون .. كما أنني واثق كل الثقة أن الجمهور اليوم اكتسب شجاعة من كلامك .. و كل من يحمل مشاعرا نحو شخص ما حاليا و خبأها بداخله طويلا هو الآن لا يُطبق صبرا للإفصاح عنها لصاحبها .

\_ معك حق .. الخطأ ليس في إضاعة الفرصة بحد ذاتها بل عدم إدراك الأمر من الأساس .. فأنا لم تكن لي أدنى فكرة عما كان سيحصل إن كان يبادلني نفس الشعور .. لم أفكر في الأمر حتى .. لم أظن أنه من الممكن أنني أخسر حب حياتي بسبب ترددي .. إلا أنني فضلت الإبقاء على صديقتي بدلا منه و هذا كان مبرري الوحيد لسنوات عدة .. فقد كانت تحبه هي الأخرى و تألمت كثيرا حين انفصل عنها فجأة دون أي سبب يُذكر .. عندها تحول اسمه إلى ذلك الوغد ففقدتُ الحق حتى في نطق اسمه .

أضف المذيع : أشكرك على مشاركة قصتك معنا دكتورة نوال وأرجو أن يستفيد الجميع منها كي لا يقعوا في الشرك الذي ينصبه لنا الخوف و يفكه الندم .

\_ هل تسمح لي سيد رجب بكلمة أخيرة موجهة لكل من يستمع إلينا الآن ؟

\_بالطبع دكتورة نوال تفضلي .

\_أولا وقبل كل شيء .. لا لإضاعة الفرص , لا للخوف , لا للتردد و لا لليأس , تعوّد على الرفض , سيفيدك صدقني , لا تجبر نفسك على فعل الخطأ , لا تخطئ في نفسك فهي قد لا تسامحك , لا تهدر وقتك في الانتظار , إنتظار ما هو آت وانتظار ما هو غير آت , كلاهما مضيعة للوقت , أخرج من مخبئك و اذهب لاصطياد الفرص , لا تعتمد على الحظ بل على القدر , الحظ هو صديق غير وفي , أما القدر فهو شقيقك الأزلي , يسير معك و يدعمك في كل خطوة , كل ما أقوله هو مجرد كلام , أنت من تجعله حقيقة إن آمنت به .

لا تتحدث فقط , بل لا تتحدث البتة عن أفكارك , هناك حيث تعيش و حيث يوجد أي حالم , هناك أشخاص وُجدوا لإحباطك , لا تتحدث و اجعل نجاحك مفاجئة , تكون ناجحا فقط عندما تنجح في إحباطهم .

من أين تأتي جرأتي , تأتي في عتمة الليل بينما الجميع نائمون , تجلب معها أفكارها الجنونية , تحثني على اتباعها و السير معها نحو الخط الأحمر , و حين نصل , تدفعني بضربة واحدة لأخطاه , أو تُمسكني في اللحظة الأخيرة و تُعيدني خطوة إلى الوراء فأشعر أنني عدت بذلك إلى نقطة البداية , تتركني في حيرة من أمري لاختيار الأسوء , هل هو شعور خسارة كل شيء أو شعور عدم امتلاك أي شيء , إذا لم أخسر أي شيء لن أعلم أبدا ماهية شعور امتلاك شيء ما , أظن أن الأمور أصبحت واضحة , ألا يقولون أن المهم هو المحاولة , كما يقولون أيضا حقا أوفر في المرة القادمة , إن خسرت يُمكنني المحاولة مجددا , لكن إن لم أشارك لن أستطيع المحاولة أو الفوز أو حتى الخسارة , لن أستطيع فعل أي شيء , سأظل مكاني مثل المُعاق , ليس عقليا و ليس جسديا , بل كالمُعاق شعوريا , ما هي المشاعر التي قد تُخالج شخصا لم يجرب أي شيء في رأيك , ستكون اللاشيء لا محالة , أنا لا أقول هذا كي أجرحكم , أنا أعلم ما هو شعور أن تكون قليل الحيلة و أنا لا ألوم أي شخص , كما لا ألومني و لا أملك عذرا أيضا أعلق عليه إحباطاتي المتتالية , فقط عدم فقدان نفسك هو انجاز كبير في نظري , البقاء على تلك الروح و عدم إخماد لهيبها هو أمر أهنئك عليه و أكتب , عمل جيد واصل واصل , لا تستعجل هذه الروح , يوما ما ستلمع و سيرها الجميع , لا توجد لحظة مناسبة , لذلك ثق بي , أنا أتحدث عن تجربة , فقط حافظ عليها و لن تندم , اسأل نفسك أحيانا , ما هذه الروح التي أملكها , ماذا تريد و كيف أساعدها على أن تُصبح , تكلم بصوت عالي , لا تخجل من نفسك , لماذا تخجل و قد فعلها قبلك الكثير , هذا ليس جنونا إنه السر , أحبّ نفسك و قبلها

أحيانا أيضا , إنها تحتاجك أكثر من أي شخص آخر , لستُ أنا من اخترعتُ هذا , إنها هي من أخبرتني , و منذ ذلك الحين صرنا أعز صديقتين .

عندما انتهت نوال من خطابها علا تصفيق الجمهور و هتافاتهم , و ظهر هو من بين الجموع وقد كانت نظرات الفخر في عينيه كمفعول البلمع على جروح الماضي التي تحولت إلى ندوب مع الزمن , أحببت نوال ابتسامته أكثر من أي شيء آخر , لكن عيناه اليوم انتزعت المركز الأول و بجدارة , تمت لو استطاعت إيقاف قلبها سابقا , لكن الآن هي تتمنى أن تعيش طويلا كي ترى هذه النظرة مجددا و مجددا , لم يتحدثا كثيرا في الماضي لذا تريد أن تعوض ذلك , هي لم تخبره أنها تحبه يوما , لذا تريد بين كل كلمة أحبك و أحبك أخرى تقولها , أن تضيف كلمة أحبك الثالثة موجهة إليه .

# القصة الرابعة

## آخر أيام أغسطس

يوم عادي مثل أيام العطلة الصيفية المتكررة, و أعني بالخصوص آخر أيام شهر أغسطس , لا معنى لها , لا ذكريات لها , إنها تمر فقط , دون خجل تسمي نفسها أياما , لا تحظى جميع الأيام بتقسيم عادل في عدد الساعات , فبعضها طويلة لا تنتهي و أخرى تمضي في رمشة عين , ياظلم .

أتساءل أين ذهبت تلك الساعات المتبقية هل يسرقها أحد ما , إن سألني أحد فسأقول أنني و الوقت في سباق دائم , كلانا متسابقان عنيدان و عنادي هذا يسبب لي القلق الدائم و يمنعني من الشعور بمرور الوقت , حتى في الأيام التي يفترض أن أسترخي فيها , ينتهي بي الأمر بتمضيها بالقلق حول ما يفترض بي أن أفعل حينما تنتهي فترة راحتي , فقط تحسبا كي لا أخدع من قبل الوقت مثلما حصل مع الأرنب في سباقه مع السلحفاة .

لكن و لأول مرة حصل أمر جعل آخر أيام أغسطس لهذا العام مميزة و يمكنني حتى القول أنها لا تنسى .

بدأ كل شيء باتصال في الصباح انتهى به الأمر أن يكون في المساء بسبب انشغالي بتنظيف المنزل و طهو الطعام لوالدي , أحبهما لكنني أكره طهو الطعام , كما أحب المنزل و أكره التنظيف و أحيانا أكرهه هو الآخر و أمل منه , حسنا من السهل أن تحب أمرا لكن من الصعب أن تبذل جهدا للاعتناء به.

كان الأمر مألوفاً , إلا أنني أحببت تسلسل الأحداث في ذلك اليوم لذا كتبت عنه في مذكراتي ثم أعدت كتابتها من جديد و بحماس أكبر بعد أن أجبته على الهاتف الذي قاومت رنينه طيلة اليوم ظنا مني أنها خالتي كثيرة الكلام و التي تغير خطها طوال الوقت , لذا أجبته فقط حين انتهيت من واجباتي اليومية .

\_ ألو من معي ؟

\_ هل هذا منزل سيد بلوال ؟

\_ أجل معك ابنته تفضلي .. من معي ؟

\_ معكِ وكالة جوز الهند للسياحة و الأسفار .

لم يكن لاسم كهذا أن يمر علي و أنساه بسهولة , كان اسما مضحكا و شهيا في نفس الوقت لذا تذكرته بسهولة , إنها نفس وكالة السفر التي ذهب كل من والدي بواسطتها لعمرتهم الأخرى و التي قبلها , أنا لا أتذكر تحديدا فهما يذهبان كثيرا كلما شعرا بالملل , و لطالما كان علي البحث طويلا بين وكالات السفر لأجد ما يناسبهما من حيث خطط الرحلات كما و يبقى علي عاتقي أنا الحجز لهما و قد تعبت فعلا فقط لدى تذكر الأمر , لكن لِمَا قد تتصل بي وكالة الأسفار هذه ؟

\_ نريد أن نهنتكم كونكم الفائزين بقرعة قد أقامتها الوكالة بمناسبة الذكرى الخامسة لنشأتها .. وكونكم احدى المسافرين معنا لعدة مرات فقد دخل اسمكما في السحب لأكثر من مرة .. تهانينا .

إن اتصالات الفوز بالجائزة الكبرى تسعة و تسعون بالمائة منها عبارة عن مقلب عفى عنه الزمن , لكنني لم أكذب الأمر و سألت عن الجائزة باهتمام .

\_إنها رحلة لشخصين إلى جزيرة بانجارام لآخر ثلاثة أيام في شهر أغسطس .. كلما عليك فعله هو القدوم غدا لملء بعض الأوراق و الاستعلام عن وقت اقلاع الطائرة .

\_ حسنا شكرا لك .

و أغلقت , لم أكن أصدق الأمر لذا لم أطرح الكثير من الأسئلة , غدا سأتوجه للوكالة و أتأكد بنفسي , لكن في نفس الوقت فكرت لو كان الأمر حقيقيا , هل سيذهب أُمي و أبي يا ترى لقد كبرا على هكذا أماكن , الجزر هي مكان للشبان -في نظري على الأقل- ألم يكن الهدف من وجودها هو توفير مكان لرحلات شهر العسل و ذكرى الزواج وحفلات العزوبية و ما إلى هناك .

أول ما قمت به هو البحث عن الوجهة فأنا لم أسمع يوماً بجزيرة اسمها بانجار شيء ما ,  
اتضح أنها واحدة من جزر تدعى بجزر لكشديب تقع في بحر أكاديف الموجود في الجنوب  
الغربي للهند , رؤيتها في الصور و الفيديوهات أشعرتني بالحماس الشديد لذا لم أستطع النوم  
جيدا تلك الليلة.

في صباح الغد أعلمت والدي على الإفطار بالأخبار , قالت أمي أنها فرصة لا تعوض و تستحق  
التجربة إلا أن أبي قاطع أنايتها و قال : أنا لن أذهب لم أعد أستطيع تحمل السفر لفترة طويلة  
كما أن لدي بعض الارتباطات .

أجابته أمي بتذمرها المعتاد , إنه أحد أسمى الحقوق التي تتمتع بها الزوجة على زوجها ,  
صحيح : هل تسمي لقاء أصدقاء شبابك في المقهى ارتباطات .. هل ما زلتم تبحثون عن  
مشترٍ للأرض المشؤومة التي اشتريتموها بمدخرات شبابكم .. في كل مرة أتذكرها فيها يرتفع  
ضغطي لو أنك لم تستمع إليهم لكننا نملك منزلاً آخر لتعيش به ابنتك بسعادة بعد الزواج ..  
لكن لا أنت تفضل تضييع الفرص علينا بدل استغلالها كأنك تحسدنا على السعادة و لو كان  
الأمر بيدك لجعلتنا نعيش على الخبز و الماء طوال حياتك .

نظر أبي نحوي وهو يُحاول تمالك أعصابه , إنه بارع في هذا , فلو لم يكن كذلك لكانا قد تطلقا  
منذ وقت طويل , قلت لأمي محاولة تهديتها : من قال أنني أريد منزلاً أنا أريد أن أعيش معكما  
طوال حياتي .. لا تقلقي علي و لنعد إلى موضوعنا .

رفع أبي رأسه و اقترح : بما أنك حزينة على ابنتك دعيها إذا تسافر .. دعيها ترى العالم كفاك  
تمسكاً بها .

\_ أنا أتمسك بها .. بل ابنتك عديمة الفائدة و ساذجة و لا تستطيع أن تعتني بنفسها حتى .. لو  
كانت مسؤولة بما يكفي لتركها تسافر بمفردها لكن لا بفضل دلالك الزائد لها ظلت ابنة أبيها  
.. حتى بعدما أصبحت في الثلاثين لا زلت تعاملها كطفلة فلا يرى فيها أي شخص زوجة  
مسؤولة و يتقدم لخطبتها .. أحسنت صنعا أنا أقدر مهاراتك في التربية .

\_ فعلا هل بقاؤها عازبة حتى الآن هو بسببي ؟ أأست أنت من كنت ترفضين جميع  
المتقدمين و تقولين أن ابنتك لا تزال صغيرة و تارة تقولين أنها لم تستقر في عملها بعد حتى  
جعلت الجميع ينفرون منا .. حتى ابن صديقي الذي قابلته في عرس الجيران لم تقبلي به رغم  
كونه كان الأنسب و أفضل عريس قد حصلنا عليه .. لكنك فقط لم تشعرني بالراحة لكونه

جيدا جدا أكثر من اللازم و جعلتني محرجا أمام صديقي .. و في النهاية حين أقام عرسا لابنه لم يدعوني لتناول الغداء حتى .

\_ حسنا لو كان صديقا حقيقيا لكان تمسك بك و لم يهرب بهذه السرعة .. كان عليه اقناعنا حين قمنا برفضه .. لِمَا تلومني على هذا إنك من تعرف صديقك أحسن مني كان عليك أن تعلم أنه لن يتقبل الرفض بهذه البساطة و سيحقد علينا .

المشكلة في حوار كهذا بين أبي و أمي ليس ما يقولانه عني و عن الآخرين , المشكلة الأساسية أن هذه القضية فُتحت عشرات المرات على مدى سنوات منذ بلغت الثلاثين دون زواج , الآن أنا في الخامسة و الثلاثين و قد أخذت بما فيه الكفاية من الوقت في التفكير في كل ما يخص الزواج و قد اتخذت قراري بالفعل , أنا لن أتزوج و سأبقى عازبة طوال حياتي , ليس عنادا في فكرة الزواج أو في الرجال و لا حتى المجتمع , أنا فقط لا أريد إنجاب الأطفال و هو أمر يعتبر قرين الزواج و لا يمكن أحدهما دون الآخر .

فجأة فكرت , بما أنني لن أتزوج إذا لن أحظى بشهر عسل , علي اغتنام هذه الفرصة و اقناعهما ليسمح لي بالسفر و إلا لن أرى أي شيء خارج هذه المدينة بعيدا عن شاشة حاسوبي .

أمسكتُ بيد أمي محاولة إقناعها كون القرار الأول و الأخير يعود إليها فأبي لن يُعارض إن وافقتُ , و لن يُوافق إن عارضت حتى و إن كان موافقا , قلت و كأنني على وشك البكاء : أمي .. حبيبتي .. حياتي .. من هي أجمل و أفضل أم في العالم أرجوك اسمحي لي هذه المرة فقط .. دعيني أذهب معك .

\_ كيف هذا على أحدنا البقاء لرعاية والدك سأكون دائمة القلق عليه إن ذهبْتُ .

قال أبي أنه سيكون بخير و هو يعني ذلك حق , بل ربما سيكون أحسن حالا بذهابها لمدة من الزمن حتى و لو لبضعة أيام , واثقة أن تلك ستكون واحدة من أجمل أيام حياته .

لم تعر أمي اهتماما لما قاله و تابعت : أنا سأبقى مع والدك و أنت جدي صديقة ما لتذهب معك أم هل أرسل خالتك معك ؟

مصيبة ستحل على رأسي إن سافرتُ مع خالتي , لكن أُمي تعتبر الرفض سببا حتميا لجعلي أسافر معها لذا أجبت بكل دبلوماسية : حقا خالتي فكرة جيدة لكن تعلمين إن سافرتُ و تركتُ أولادها ليوم واحد ستنتقدها حماتها و ستجعلها تدفع ثمن ذلك لفترة من الزمن .

\_معك حق لديها مشاكل تكفيها لا أريد مشكلة كهذه رغم أنني واثقة أنها ستوافق إن طلبتُ منها مرافقتك .

\_ماذا في ذلك سأجد صديقة ما لا عليك .

\_إسألني صديقاتك إذا .. إسمعي إن لم تجدي صديقة تذهب معك فأنت لن تذهبي أنا لن أسمح بسفرك لوحيدك و لو حتى ليوم واحد .

كان هذا شرطا وُضع في العقد و علي الوفاء به إن أردت النجاة .

سار هذا الحوار قبل حتى من أن أتأكد إن كانت الرحلة حقيقة حقا , و لحسن الحظ فقد كانت كذلك فعلا , و لو حصل العكس لكنت انفجرت بالبكاء أمام عمال تلك الوكالة فقد وضعت آمالا كبيرة على هذه الرحلة و أسميتها رحلة العمر .

ما فهمته منهم أن علي الاقلاع بعد أسبوع و هذا وقت غير كاف بتاتا لإيجاد مرافق او بالأحرى مرافقة .

هكذا تكون بداية القصص في العادة حصول مشكلة هو أمر مفروغ منه وإلا لن يتطلع أحد للنهاية عندما تُحل جميع العقد , لكن عقدي حصلت قبل أن تبدأ حكايتي .

لم تكن أي من صديقاتي أو صديقات صديقاتي متاحات للقدوم , كان علي حل هذه العقدة إن أردت بدأ قصتي لذا اضطررت للكذب و السفر وحيدة , و لأن المدة قصيرة جدا تجرأت علي فعل ذلك بأُمي , إنها ثلاثة أيام لا سبب لتضخيم الموضوع و جعلني أعاني من الرفض المستمر , لقد مللت سماع كلمة لا .

في الحقيقة لم أكن وحيدة حقا فقد كنت أسافر مع مجموعة , مجموعة مكونة من ثلاث ثنائيات من المتزوجين حديثا و شاب يحمل الكاميرا معه أين ما يذهب , أعتقد أنه يعمل مصورا أو شيئا ما له علاقة بالتصوير , في الواقع ليست عندي خبرة كبيرة في هذا المجال فأنا لم أحمل آلة تصوير في حياتي , الكاميرا الوحيدة التي عرفتها هي كاميرا هاتفي الذكي و لا شيء

آخر , و لست الملامة على هذا فثمن هذه الأشياء حقا مرتفع , إذا يُمكن القول أن للنقود القدرة على تحديد هواياتك أيضا -بالإضافة إلى أشياء أخرى- و ليست مواهبك التي تحدد ذلك , حينما نرى مثلا أن الرياضيين الجزائريين غير جيدين في رياضات غير رياضة الجري و ربما غير موجودين أساسا فذلك ليس بسبب انعدام المواهب بقدر ما هو انعدام في المسؤولية الموضوعة على عاتق الداعمين لتلك الرياضات .

وصلنا في وقت متأخر من الليل للجزيرة , مكان أقل ما يمكن وصفه به هو أنه تجسيد للجنة , كل ذلك السحر الذي يُلامس وجوهنا الليلة جعلنا ننسى أننا لا نزال على سطح الأرض , أو ربما أجسامنا فقط من بقيت تُلامس الرمال , أما أرواحنا فقط سرحت في المكان و اختلطت مع كل منبع مضيء وُجد حينها , كان ظلي وحيدا و ثابتا بينما تجول كل جزء مني بين تفاصيل كل شيء , لقد انفصلت عني للحظة , هل نُزع الحجاب عن عيني يا ترى , فأصبحت أرى ما تعجز العين البشرية عن التقاطه .

سحبتني احدى النساء من مجموعتنا و التي بدت أصغر مني عُمرًا , منحنتني هاتفها وطلبت مني أخذ صورة لها و لزوجها العظيم , رفعت الهاتف و حاولت ألا أنحاز للجمال المحيط بهما فقط كي أظهرهما بأفضل صورة , قبل التقاط الصورة نظرت جيدا لابتسامة الفتاة و في المقابل أمعنت النظر في وجه زوجها الذي لم يوحى بمشاعر تُذكر عدى الانزعاج , أم كانت اللامبالاة , لا أعلم لم أستطع فهم الأمر , كيف تكون في مكان كهذا و تبقى مشاكل الحياة تنغص عليك عيشك , ماذا عن الاستمتاع باللحظة هل هو صعب لتلك الدرجة .

أخذت صورتها ثم وجهت كاميرا الهاتف نحو اليمين قليلا لأرى الثنائي الواقف بجانبهما مع التكبير بالطبع , كانا يلتقطان الصور كل بمفرده و سرعان ما تختفي تلك الابتسامة المصطنعة التي نُطبع في ذاكرة الهاتف و تُمحي من وجهيهما فور الانتهاء من أخذ الصورة المطلوبة .

حين أعدتُ الهاتف إلى صاحبه سألتني إن كنت أريد التقاط صورة لنفسي , لكنني رفضت , أنا لا أحب التقاط الصور لنفسي , انا سأكون موجودة دائما رغم تقديمي في السن و ظهور التجاعيد على وجهي , لكن هذه الذكريات و هذه الأماكن لا يمكن أن تُعيد نفسها , إن كنت محظوظة كفاية و جربتها مرة فعلي أن أستغل كل جزء من الثانية في حفظها في ذاكرتي التصويرية , أنا فقط أحاول عيش اللحظة بكل خلية في جسمي , لكن السبب الحقيقي هو أنني لا أظهر جيدة في الصور , حين أتوقع شيئا لكنني أرى شيئا آخر , لذا لا داعي لمضايقة نفسي و لنكتفي بتجنب الأمر .

بعد انتهاء الوقت الذي منحنا اياه المرشد , انتقل الجميع في طريقه باتجاه غرفته , وصلتُ  
غرفتي منهكة تماما , لم أعر اهتماما حتى لفخامة المكان و جمال هندسته بل اكتفيت بالنظر  
للسقف طويلا قبل أن أستسلم للنوم .

عند استيقاظي في صباح اليوم التالي كان السقف هو أول ما رأيته أيضا لم يكن المنبه من  
أيقظني و لا أشعة الشمس التي شغلت كل شبر في الغرفة بل كان صوتا مزعجا يتكرر بعد كل  
رقع على الباب , يُدعى " آنسة هبة هل أنت بخير " فتحتُ الباب بعد غسل وجهي , كان  
المرشد قلقا , ظن أن أمرا أصابني فقد نمت لفترة طويلة وفوت عني بعض النشاطات , لم  
أسأله حتى ماهية تلك النشاطات بالضبط فأنا لن أجيدها على أية حال , فكيف لشخص  
ذهب للبحر مرات معدودة في حياته لا يعرف السباحة حتى , أن يُجيد ركوب الأمواج أو  
الغوص ؟

لم أكن غاضبة أو منزعة , فحتى النوم على سرير كهذا في غرفة كهذه مع الموسيقى التي  
يُخلفها ارتطام الأمواج كان نشاطا كافيا بالنسبة لي و يمكنني الاستمرار فيه طوال اليوم دون  
تعب .

أظن أن تغير الوقت قد أضر بساعتي البيولوجية فمنعني من تمييز متى علي الاستيقاظ , لا  
بأس , انا وحيدة على كل حال و إن استيقظت فلن أجد ما أفعله , حتى مع انغماسي في جمال  
المكان لا تزال الوحدة فحا للحزن وقعت فيه باكرا.

جهزتُ نفسي وانضمت للمجموعة على طاولة العشاء الفاخرة التي جهزها طاقم الجزيرة ,  
تضمنت أنواعا من المأكولات البحرية التي لم أحلم يوما أني قد أتذوقها ليس لشيء عدى  
كوني لا أعلم بوجودها من الأساس , من كان يعلم أن كائنا كقنفذ البحر يمكن أن يؤكل .

أغلب الثنائيات المتواجدة بدت متفاهمة جدا و سعيدة إلا الزوجين اللذان التقطت  
صورتهم , كانا من المكان الذي أنظر منه يبدوان في قمة البؤس , شعرت بالشفقة على  
الزوجة فقد كانت تُحاول بجد , تقوم بتقشير الجمبري بكل عناية و تمنحه إياه ليتذوقه , لكنه  
يرفض تناوله رغم كل محاولاتها , كما أن علامات الانزعاج لا تزال مخيمة على وجهه منذ  
البارحة , رؤيتها بهذا الشكل جعلني أضيف سببا آخر لعدم رغبتني في الزواج , ألا و هو الحفاظ  
على كرامتي .

مهما كانت الموسيقى رومانسية و الأجواء شاعرية لأبعد الحدود , شعور أننا دخلنا في فيلم رومانسي فجأة و على الجميع أن يمثل أنه يغرق في الحب كان منطبقا على الجميع إلا من أسميتهما الثنائي الحزين , لم يوليا أدنى اهتمام لكل المشهد و لو كنا نصور فعلا لوبخهما المخرج و طلب مغادرتهم منه , الكل كان مشغولا بنفسه و بالطعام فلم ينتبه أحد لهما لكن بالنسبة لي كان يتطلب الأمر أكثر من مجرد مأكولات بحرية كي أنشغل عنهما , من الصعب على الطعام اغرائي وهذه حقيقة عني , فقد دربت نفسي فطريا على الزهد في الأكل , حين تعتاد التخلي عن طعامك المفضل و الترفع عن جعل نفسك عبدا لذلك الطعام ستغدو أقوى , و يجعلك هذا تدريجيا قادرا على التخلي عن أي شيء أردته بشدة , خاصة في حالة إن كانت الحياة قد خططت لفراقكما مسبقا .

قام النادل برفع الأطباق و أنا بالكاد لمست صحنني , عندها سألتني صاحبة الكاميرا فجأة : هبة أنت لم تأكلي ألم يُعجبك الطعام ؟

يبدو أنني لست الوحيدة التي تُراقب , ظننتها مشغولة جدا بمشاكلها الزوجية على الانتباه للأمر , حتى أنني استغربت معرفتها لاسمي في حين أنني أجهل أنا اسمها , وجدتُ ما قامت به بمثابة التفافة لطيفة لذا شكرتها و أحببتها أنني لا أشعر بالجوع في الوقت الحالي.

بعد العشاء خرج الجميع للمشي على الشاطئ , هناك مَثَلٌ يقول "تعشى و اتمشى" حين ما يُذكر مرة أخرى سأذكر تلك اللحظات جيدا , فقد أحببت حقا ملامسة الماء البارد لقدمي العاريتين , لكن حين يعود أدراجه أشعر أنه يتجنبني لسبب ما , أنا لا ألومه لو كنت موجا لتجنبُ البشر أيضا .

في أوقات كهذه , أوقات جميلة جدا وخيالية لدرجة عدم تصديق أنك تعيشها فعلا , في أوقات كهذه لطالما كنت أميل للتفكير بأمور حزينة لسبب ما أجهله في الحقيقة , لم أستمتع يوما بهذه الأوقات مائة بالمائة , إنها نسبة لا أحلم بها حتى , أنا لا أعتبر نفسي متشائمة ولكنني لست متفائلة أيضا , أنا فقط واقعية , فحينما يُحاول الخيال سحبي بعيدا أجد طريقي بسرعة و أعود أدراجي إلى الواقع فقط كي لا أصبح تائهة في عالم لا يرحم .

أفكار كتلك لم تكذب عبر دماغي لتستقر في احدى حُجر عقلي الباطني التي أدعوها أنا بالمسلمات حتى قاطعني نداء من شخص غريب "آنسة هبة .. آنسة هبة " هذا ما أعنيه بتعكير صفو أحدهم .

نظرت إلى الورا فوجدت الشاب المتزوج من الكاميرا يركض باتجاهي و هو يحمل هاتفه على عصا , تقدم نحوي و ألقى التحية ثم طلب مني إلقاء التحية على متابعيه , إنهم أطفاله الأعزاء هو و الكاميرا .

أول ما خطر على بالي حين طلب إلقاء التحية كان ردة فعل أُمي إذا اكتشفت أُمري , اعتقدتُ أن إخبارها أنني سافرت مع سناء من بين جميع صديقاتي كان كافيا ليُريح قلبها إلا أنها اتصلت بي في اليوم الأول خمسة مرات و حين أجبت مكالمتها أخيرا أول ما سألتُ عنه كان مكان سناء , إذا اتصلتُ مجددا لن أستطيع تكرار نفس العذر و إخبارها أنها في الحمام , آمل فقط أن تستمع لي و لا تتصل مجددا فثمن المكالمة الدولية غال بالفعل و لا أريد العودة و دفع ثمنها من جيبي .

لكن أُمي لا تُشاهد مثل هذه الأشياء , لذا لا بأس بإلقاء التحية على ما أعتقد .

كان بئرا مباشرا قد فتحه الشاب لمتابعيه كي يروا مدى جمال الجزيرة , طلب مني إجراء محادثة بسيطة معه كي يجعل بئره أكثر إمتاعا فوافقت .

جلسنا على احدى الكراسي الخشبية المتأرجحة الموجودة في الجزيرة , و بدون تحذير مسبق بدأ في استجوابي : هل يُمكنك أن تُعرفني عن نفسك أولا فهذه أول مرة تظهرين فيها على قناتي .

\_ في الحقيقة هذه أول مرة أظهر فيها على الانترنت لذا أنا متوترة قليلا .

\_ لا عليك كوني على طبيعتك سوف تندمجين في الجو بسرعة .

\_ حسنا أولا اسمي هبة بلوال أنا من العاصمة أعمل أستاذة في الثانوية .

\_ ماذا تدرسين ؟

\_ اللغة الانجليزية .. لدي بالضبط عشر سنوات في هذه المهنة .

\_ حقا ؟ كم كان عمرك إذا حين بدأتِ مزاولتها ؟

\_ كنت في الخامسة و العشرين حين بدأت .

لم يتكبد مجهودا يذكر لإخفاء اندهاشه و بدل ذلك سأل مُؤكدا : إذا أنت في الخامسة و الثلاثين ؟

أجبتّه محاولة عدم إظهار الإحراج الذي وضعني داخله : أجل سأبلغ الخامسة و الثلاثين في سبتمبر القادم .

\_اه اعذريني كل ما في الأمر أنك تبدين أصغر من ذلك .. أليس كذلك يا رفاق ؟ ألا تبدو انها لا تزال في العشرينات .

قرأتُ بعض التعليقات ويا ليتني لم أفعل , لقد كانوا يقولون أنني مضادة للشيخوخة أو شيء ما , لما يبالغون في كتابة آرائهم أم هم يعتمدون ذلك للسخرية مني و من صاحب القناة , لا أعلم حقا , لا يُمكن حقا معرفة كيف يُفكر الشخص عند قراءة تعليقه على الانترنت , فأنت لا تعرف وجهه أو عمره , جنسه و لا من أي بلد هو , ستكون جاهلا للكثير و هذا سيعيقك من معرفة صدق كلماته .

تابعنا حديثنا و أخبرته بعض القصص بعد أن فتحنا موضوع الدراسة و التلاميذ , فقد سأله أحد المتابعين إن كنت من فئة الأساتذة الذين يجعلون اختبارات تلامذتهم صعبة جدا كي لا يأخذ أي شخص علامة جيدة , لكنني أخبرته أن جميع تلامذتي يبلون جيدا و لا يحصل أي منهم على نقاط سيئة في اللغة الانجليزية , أضاف الشاب على كلامي كأنه الشخص الذي طُرح عليه السؤال : إن الجميع يحبون الانجليزية لذا لن تجد شخصا لا يبذل مجهودا فيها .

لم أكن أتفق معه لذا أضفت : في الحقيقة أنا أختلف معك في هذا فقد درّست الفرنسية كذلك لمدة من الزمن و قد كانت النتائج مماثلة .. في رأيي أن حب اللغة يأتي ثانيا بينما حب أستاذة اللغة يأتي أولا .

وسط كل تلك الأسئلة , سألني الشاب مشيرا إلى احدى التعليقات : هنا ضوء القمر يسأل أو تسأل إن كنت متزوجة ؟

\_حسنا لا .. أنا لا أزال عزباء .

عادت إلى وجهه علامات الدهشة تلك , يبدو أنني انسان غريب و قد اكتشفتُ ذلك الليلة .

تابع متحججا بالتعليقات : حقا .. الجميع يسأل عن السبب .. لما لم تتزوجي بعد .. مازال  
ماكتبش المكتوب ؟

إضافته لتلك العبارة كانت إشارة عن أنه لا يريد سماع إجابة مبتذلة .

\_ لنقل إذا أنني لست من مؤيدي فكرة الزواج و قد ساعدتني الحياة في الخفاء للثبات على  
فكرتي .

انتهت محادثتنا عند هذه النقطة فقد كان علينا العودة إلى غرفنا و قد تأخر الوقت.

في صباح اليوم التالي لم أستيقظ على صوت المرشد بل على صوت ذلك الشاب من أمسية  
البارحة , لما لا يُريد أحد السماح لي بالنوم و يتعمدون ازعاجي .

فتحتُ له الباب بغضب , من دون أن أغسل وجهي حتى , و قد اتسعت عيناه لدى رؤيته لي  
بهذه الحالة , ربما أدرك كم كان أحمقا حين اعتقد أنني أبدو أصغر من سني , سألته بعدما  
هدأتُ تلقائيا : صباح الخير .. ما الأمر هل أرسلك المرشد لإيقاظي ؟

\_ اه حسنا لقد كان الجميع يتناولون إفطارهم و لم ألحظ وجودك لذا جئت لأطمئن فبعد كل  
شيء أنت جئت و حيدة و أنا كذلك .. فكرتُ أن أرافكك و ترافقيني حتى لا نشعر بالملل .. لا  
بأس من كوني وحيدا فأنا هنا للعمل .. بينما أنت تبدين في عطلة لذا شعرت بشيء من  
المسؤولية.

\_ حسنا شكرا لك لتفكيرك بهذه الطريقة لكنني بخير حقا و لا أحتاج إلى عطفك .

\_ لا تفكري بهذه الطريقة بل فكري أنها زمالة عمل لقد ساعدتني البارحة في بشي لذا أردت رد  
الجميل لك اليوم .

\_ حقا لم أفعل أي شيء .. هل شاهد بئك الكثير ؟

\_ أجل لقد أتى الكثير بسبب شخصيتك اللطيفة .. إذا هل ستسمحين لي برد الجميل ؟

\_ و كيف تنوي فعل ذلك ؟

\_ حسنا كل ما عليك أن تفعله هو أن تجهزي الليلة وترتدي أحسن ملابسك و لا تتأخري من  
فضلك .

\_مهلا هل تدعوني على العشاء ؟

\_لا تقلقي سيكون الجميع هناك سنستمتع بوقتنا ليس إلا .

\_حسنا هذا ما كنتُ أخطط لفعله على أي حال .. لم يكن عليك سؤالي للقدوم فأنا بالطبع لا أخطط للبقاء في غرفتي طوال اليوم .

أغلقتُ الباب و عدتُ للاستمتاع بهواء الجزيرة بمفردي .

لم أكن متحمسة لمفاجأته الليلة ولكن و لسبب ما بدأ فضولي يستدرجني نحو طرح فرضيات من وحي الخيال , يمكن لأحلام اليقظة أن تكون خطيرة لدرجة كبيرة لا يُمكن تخيلها و أنا أعني هذا , الخيال ليس ضعيفا فقط لأنه غير حقيقي , بل على العكس هو على عكس الواقع يُمكن أن يخلق المعجزات , الأفكار و ما نراه في عقلنا هذا هو المرآة التي تعكس واقعنا , أنظر لأفكارك تُدرك سبب كون حياتك كما هي الآن , حين فكرتُ في الأمر شعرت أنني لستُ أبعدُ آلاف الكيلومترات عن غرفتي في شقتنا في الطابق الثاني لعمارة أحد الأحياء التي تقع غرب العاصمة , بل أنا داخلها بالفعل .

بعد يوم طويل من المرح على الجزيرة أنهيت يومي بالتقاط الصور للمناظر التي تشبه إلى حد كبير تلك التي نراها في المجلات و الانترنت , تبدو غير واقعية بل معدلة و لو لم أكن من التقطها لظننت أنها كذلك .

فعلا الحياة مخيفة كونها غير متوقعة و لا تفشل أبدا في إدهاشنا نحن البشر بشتى الطرق و مهما تعددت الأسباب .

في المساء ارتديت أجمل ملابسني التي أحضرتها معي في الحقيبة , كان فستانا أبيض طويل من الساتان مطبوعة عليه زهور حمراء صغيرة , كنت أخطط لارتدائه في اليوم الأخير و لكن لا بأس لا تسري الأمور كما نخطط لها دائما , و خاصة في العطل , بل هي تتعمد الفشل من أجلنا كي نحصل على متعة أكبر , فلو كانت الأمور تحت السيطرة على الدوام لكانت الحياة مملة .

جلسنا جميعا على العشاء و كانت الأجواء أحسن بكثير من اليوم السابق بالنسبة للثنائي الحزين , أظن أن هذه التسمية لم تعد سارية بعد الآن لأغيرها إلى الثنائي الغاضب , أعلم أن الأمر يبدو سيئا مجددا و لكن أنا أومن أنه يوجد أمل إن وُجد الغضب , إنه دلالة على أن الثنائي ما زال يهتم لهذه العلاقة و لم يستسلم للاشيء .

قد يبدو الأمر مبتذلاً حين تفكر فيه و لكن أنا عديمة الخبرة في كثير من الأمور و الزواج واحد منها .

تناول الجميع طعامه في صمت , لم أفهم ماذا حصل لألسنة الجميع لما يكتبون أنفسهم , خاصة الثنائي الأكبر سنا , كانا ثنائيين لدرجة لا توصف , أعلم أن التقدم في السن يعني ذكريات أكثر , أي قصصاً أكثر لروايتها , و لكن لا داعي لإخبارنا بكل تلك القصص التي جمعتها طيلة سنوات في جلسة واحدة .

بدى الوضع مريباً لكنني لم أكن مقربة من أي أحد لدرجة أن أسأل عن سبب هذا الصمت , لذا شاركتهم فيه و لم أقطع صفوهم .

حين انتهينا من العشاء و رُفعت الصحون تكلم صاحب الكاميرا أخيراً , نهض فجأة عن كرسية و قال : حسناً الآن اتبعوني .

كنتُ أظنّ أنه يمزح لكن الجميع بدوا جادين جداً فقد نهضوا فعلاً و لحقوا به , أحسست أنني كالأطرش في الزفة لا أعلم لي بأي شيء يحصل , لحقت بهم أنا الأخرى كي لا أترك وحيدة مثل بقايا الطعام في صحن العشاء .

كان يقودنا إلى الشاطئ و حين وصلنا بدى أنني كنت الوحيدة المتفاجئة بما رأيته بينما التفوا هم حولي و صفقوا بحرارة , ظهرت علي الصدمة لدرجة أنني فكرت للحظة أنني ربما أكون نائمة و لم أستيقظ بعد , فقد بدى الأمر غريباً .

بينما كنت متجمدة في مكاني تقدم صاحب الكاميرا الذي لا أعلم لي باسمه حتى و طلب مني الوقوف داخل القلب المصنوع من الرمال و المحاط بأوراق الورود الحمراء داكنة اللون , نفذت الأوامر فقط لأعرف إلى أين تتجه الأمور .

عندها و من دون مقدمات تقدم صاحب الكاميرا نحوي و هو يحمل بين يديه وروداً حمراء مثل تلك المرمية على الرمال , و وسط تلك الشموع المضاءة و التجمع الكبير الذي حضر للمشاهدة , و مع وجود رجل من طاقم الجزيرة بيننا يحمل جهازاً لوجي بدى كأنه يقوم بتصويرنا , فتح الشاب فهمه ليتكلم و ليته لم يفعل :

آنسة هبة لدي اعتراف أريدك أن تسمعيه

قابلتك للمرة الأولى و من حينها و أنا أقع في الحب معك

بفضلك تعلمت كيف أكون شجاعا

عندما أشاهدك أشعر بالحب يحتضني

أنا اتبعُ قلبي الآن

أنا احبك

كوني ما تريدين أن تكونيه

حبيبتي أنا فقط أحتاجك

أرسل حبي إليك

وضع الباقة على الأرض و فجأة أخرج شيئا من جيبه ثم اتخذ وضعية طلب الزواج و رفع الخاتم أمامي , لا أعرف بالضبط ما الذي كان يتوقعه لكنني فعلت ما كانت ستفعله أي فتاة في مكاني الآن , حتى مع تصفيق الحضور و هتافاتهم أنا لم أضعف للحظة , فقط شعرت أنني غبية و لا أحد يُحب أن يشعر أنه غبي , و رغم المرارة و الغضب اللذان أحسست بهما إلا أنني نجحت في تمالك أعصابي كما يفعل أبي دائما و هي صفة سعيدة أنه أورثني إياها , انحنيت نحوه بهدوء و أخذت الخاتم , نظرت إليه جيدا , كان خاتم زواج بالفعل جلست على ركبتي و أخذت يده و ألبسته إياه ثم قلت : أعتذر لكنني أرفض الزواج من شخص معجب بنفسه .. إن كنت تحبها لهذه الدرجة فتزوج أنت بها .

نهضتُ و غادتُ المكان و الأصح هربت من تلك الأجواء بسرعة قبل أن أفقد آخر قطرة من ماء وجهي فقد كان موقفا محرجا بحق .

عدتُ إلى غرفتي و لم أخرج منها طول الليل , بل استلقيت على السرير لأعيد تكرار ما حصل في ذهني لربما أهوّن من وقع الصدمة قليلا على نفسي , لكنني كنتُ أزدادُ سوءا كلما تذكرتُ الأمر و تفاصيله التي لم أنتبه إليها في المرة الأولى .

بسببه الآن أنا لن أستطيع النوم طيلة الليل لكثرة الأفكار التي اجتاحتني , إلا أن مخاوفي لم تتحقق و كان التعب كفيلا بجعلي أنام .

خضتُ الكثير مع عقلي طيلة حياتي لذا أملك خبرة في كيفية جعله يهدأ .

في صباح الغد لم أستيقظ على طرق الباب كاليومين الفائتين بل استيقظت بعد رنين هاتفي , كانت أُمي من تتصل , لابد أنها استيقظت للتو فقط كان الوقت لا يزال مبكرا في الجزائر , أحببت دون أن أفكر في عذر لغياب سناء و قد اكتشفتُ ذلك بعد أن أحببت على الهاتف .

\_ ألو أُمي صباح الخير كيف حالك ؟

\_ ألو هبة أعطني سناء أريد الحديث معها .

\_ اه سناء ليست في الغرفة الآن هل حصل أمر ما أخبريني و سأبلغها بما تريدن .

\_ حقا ألا تخجلين من الكذب على أمك هكذا ألم أعرف كيف أربيك إنك امرأة كبيرة كيف تلعبين ألعابا كهذه .. لقد جعلتني أخجل من والدك .

\_ و ماذا في ذلك لم تكن سناء متاحة و لا أي شخص آخر لذا ذهبت بمفردي وكما قلت أنا امرأة ناضجة إلى متى تنوين التحكم في تصرفاتي .

\_ حقا ؟ لو كنت امرأة مسؤولة فعلا لما كنت سأتكبد عناء القلق عليك كأنك لا تزالين فتاة في الثامنة عشر .

\_ أنت بارعة جدا في تجاهل الموضوع و دائما ما تتركيني أشتعل غضبا .

\_ لقد أرسلتُ خالتك فيديو أرسله صديق ابنها الذي تدرّسينه في فصلك .. لقد كُتبت في العنوان أنه مقلب .. لم أفهم كيف سمحتي بحصول ذلك من أين أتته الجرأة ليفعل بك ذلك ؟

\_ حقا ؟ لم أكن أعلم أنه مقلب .. حسنا هذا يفسر كل شيء .. لا تسأليني أسئلة عن هذا يا أُمي فحتى أنا لا أملك أية إجابات .

\_ أرايت ما يحصل عندما لا تستمعين لي لو أنك لم تذهبي لما حصل هذا .. الآن كل الانترنت تتحدث عن ذلك الفيديو و اتصالات الأقارب لم تتوقف منذ البارحة لقد ظنوا أنك تعرفينه أو ربما هربت معه لقد قالوا لي أشياء فظيعة لم أستطع حتى أن أخبر والدك بما حصل .

\_ أمي .. أنا لا أهتم بتاتا بما أخبروك به أو ما يظنونونه حولي إنهم لم يتصلوا عندما أخذت شهادة البكالوريا لكنهم يتصلون ليسألوا عن هذا الأمر .

\_ هذا خطأك أيضا لو أنك حصلت على معدل مرتفع لكانوا اتصلوا .. ابنة خالتك عندما حصلت على امتياز الكل اتصل بها بل و ذهبوا إلى خالتك و أحضروا الهدايا معهم .

\_ هذا ليس وقتها أبدا كما أننا تحدثنا في هذا الموضوع لسنوات ألم تسأني من فتحه مرارا و تكرارا .

\_ أنت من فتحته و لكن ماذا نفعل إن كانت ابنتي ساذجة و لا تستطيع اسكات أفواه أقاربها الذين كلما التقيتهم لا يلبثون يُخرجونني بأسئلتهم التي لا إجابة لي عليها فقط لأنك لست مثل ابنة خالتك .

\_ لقد كنتُ في دورتي الشهرية في أسبوع الباك كم مرة علي أن أخبرك بذلك لم أكن بصحة جيدة .. كما أن وفاة جدي قبل شهر من ذلك أثر علي .. ما الذي كان علي فعله .. فعلت ما بوسعي لكن لم يعجبك .. أنت نفسك كنت تكذبين حين أحصل على علامات جيدة و تجعلينهم يظنون أنني حمقاء أو محظوظة لحد ما فقط كي لا يحسدوني .. و الآن تنتظرين منهم أن يهملوا لي على أمر ما .. أنت لم تسمحي لي بفعل أي شيء رغبتُ فيه و حينما فعلتُ ما أردتِه أنتِ و فشلتُ فيه انتقدتني .. هل أنا المسؤولة حقا .. حسنا معك حق أنا فتاة لا تستحق أي شيء لأنها سمحت لك باختيار سعادتها بدلا عنها .

أغلقت الهاتف بغضب شديد , أردت فجأة رمي نفسي في البحر و جعل الأسماك تلتهم جسدي علي أرتاح من هذه الحياة .

حينما حل الليل طرق أحدهم باب الغرفة , أنا لم أخرج طيلة اليوم , كان اليوم الأخير لنا هنا لكنني أردته أن ينتهي بسرعة لأعود أدراجي إلى عالمي الذي أنتمي إليه .

ترددتُ في فتح الباب في البداية لأن عيني المنتفختين ستخرجاني كثيرا لكن مع هذا كان علي فتحه مرة واحدة كي أطمئنهم , فقط لأنتهي من أي إزعاج لاحق .

\_ نعم؟

\_ آنسة هبة .

تفاجأتُ حين رأيت الفتاة من الثنائي الغاضب تقف أمامي و قد بدتُ قلقة حقا .  
تابعتُ حينما لم أرد بأي شيء .

\_ أنسة هبة هل أنتِ بخير ؟ لم تخرجي طيلة اليوم .. كما أنك فوتي العشاء .. ربما تكونين  
غاضبة منا لأننا لم نخبرك لكننا لم نعلم أنه مقلب صدقيني .. لقد أخبرنا أنه ينوي عرض  
الزواج حقا و قال أنه يحتاج خاتما حاليا فقط من أجل أن يراه متابعه فاعرته خاتمي .

\_ هل كان الأمر مضحكا أنا واثقة أنكم ضحكتم كثيرا بعد أن رحلتُ .  
طأطأتُ رأسها و نظرتُ للأرض و اعتذرتُ .

أمسكتُ يدها بما أنني الأكبر هنا و علي أن أكون متفهمة أكثر و قلت :

\_ أنا أمزح .. لا بأس أنا لم أكن غاضبة منكم أساسا الشخص الذي ينبغي أن يكون هنا ليعتذر  
هو ذلك الشاب و ليس أنتِ .

\_ إنه هنا بالفعل .

تفاجأتُ ثانية حين قالتُ ذلك و فوجئتُ أكثر حين ظهر صاحب الكاميرا و وقف بجانبها .

نظر إلي و قال أنه حذف الفيديو من قناته لكنه كان مباشرا لذا قام البعض بتسجيله و نشره  
هنا وهناك إلا أنه وعد بإصلاح الأمر .

كنت أريدُ صفعه حين ظهر لكن غضبي تحول فجأة إلى حزن و جلد للنفس , أحسستُ بشكل  
ما أنني السبب فعلا و أن أمي على حق , ما كان علي المجيء إلى هنا فعلا , أعتقد أنني كنت أريد  
الهرب منها فقط و لم يكن يعينني المكان , أي مكان سيفي بالعرض و أي ظرف سيكون كفيلا  
لجعلني أرتاح لأيام , لكنني اشتقت إليها و إلى والدي و إلى غرفتي العزيزة .

بعد إلحاح الفتاة , قررتُ الانضمام إلى السهرة التي قامت المجموعة بإعدادها بمناسبة آخر  
ليلة نقضيها على الجزيرة , جلسنا حول النار و أخذنا نتبادل الحكايات فيما بيننا و المواقف  
المحرجة التي وضعنا الحياة فيها من قبل .

استمتعت فعلا بقصص الثنائي الثرثار و قد كان الثنائي اللذان لا يفارقان الهاتف قد قاما  
باستثناء لأجل الليلة و تركا الهواتف في الغرفة , كنتُ سعيدة و حزينة كالعادة و قد كنت قليلة

الكلام , أردت البكاء لكنني تذكرتُ أنني بكيت كثيرا بالفعل و سأصاب بصداع مريع إن تابعت البكاء الآن , كما أن عيناى تؤلمانى لذا على التحمل قليلا , لاحظتني الفتاة التى لا أعرف اسمها حتى الآن و شعرتُ بالخجل من سؤالها عنه بعد كل هذه المدة التى أمضيناها معا .  
تقدمت نحوي و سألتني أن أنضم إليها للمشي قليلا أمام البحر , وافقت بكل سرور فعليّ أن أشغل فكري و إلا سأنفجر .

سرنا أمام البحر أم وراءه أو ربما فوقه , كل ذلك لم يُهم فقط حين تحدثتُ الفتاة أولا : حين علمتُ لأول مرة أنك لستِ متزوجة أصابتنى الدهشة و قلتُ فى نفسى لابد أن هناك سبب لهذا .

\_ إذن هل تسألينى عن السبب الآن ؟

\_ إن لم تريدى أن تخبرينى سأفهمك .. أنا فقط أخبرتك عن أفكارى بكل صدق .

\_ إذا أتريدى أن تعلمى ما فكرت به حولك أنتِ و زوجك ؟

\_ حسنا لقد رأيتك تحديقى بنا كثيرا خلال الرحلة لذا اعتقدتُ أن لديك ما تخبرينى به .

\_ لكنه لن يعجبك .

\_ لم أسألك لأننى أريد سماع شيء يُعجبني .

\_ أنا لا أعرفكما جيدا من أنا لأحكم عليكما و أمنحكِ رأى .

قلت ذلك مع أنني فعلته بينى و بين نفسى , قلت ذلك ببراءة تامة كأن هذا أمر لا يفعله البشر فى العادة.

\_ لقد كُنّا نحاول إنجاب طفل طيلة خمس سنوات و لم ننجح و لو لمرة واحدة .. علاقتنا لم تكن هكذا أبدا لقد تزوجنا عن حب .. لكننا كدنا نفترق عن كراهية .

\_ كدتما ؟

\_ لقد أخذنا فيما بيننا قرار الانفصال لكن حمايتى أتت بفكرة السفر فى عطلة كي نُصلح علاقتنا .

\_إذا كيف سار الأمر ؟

\_برأيك هل هناك أمل لنا ؟

لا تكتفي هذه الفتاة من مفاجأتي مرارا و تكرارا بأسئلتها , أنا لا أريد أن أتدخل بأي شكل كان فأنا سيئة في اتخاذ القرارات بل أنا لم أتعلم ذلك أبدا فأمي من كانت تتخذ القرارات لي و لوالدي , أنا كنتُ أنفذ فحسب , و لو كنت مكانها لكانت أُمي من اتخذت قرار الطلاق بدلا عني , أنا ألومها بقدر ما ألوم نفسي لأنني سمحت لهذا أن يحصل , أنا أعلم بالفعل أنني فتاة ميؤوس منها لم أستطع النجاح و لم أستطع الاعتراف بالفشل بأي شكل كان .

\_بما أنك شرحتِ وضعكِ أنتِ و زوجك و شاركتني بهذا أريدُ أن أرضي فضولك و أخبرك بسبب بقائي غير متزوجة حتى الآن ..

فجأة سمعنا صوت نداء من الخلف , كان زوجها يشير على الهاتف بدى أن شخصا يتصل بها , استأذنتُ و غادرتُ مسرعة إليه .

عدتُ أنا أيضا أدراجي فوجدت أن الجميع قد غادر السهرة و عاد إلى غرفته إلا شخصا واحدا كان لا يزال يجلس مقابلا للبحر و يحتسي مشروبا ما , بدى أن صاحب الكاميرا تملأه الهموم أكثر من الثنائي الذي هو على وشك الطلاق , لذا أردت الجلوس بجانبه و سماع قصته هو الآخر لكن انتهى به الأمر بسماع قصتي بشكل ما .

سألته و انا أجلس بجانبه : ما الذي تفكر به .. هل أنت نادم ؟

\_أجل .. أحيانا نحن المؤثرون أو مهما كان اسمنا و حقيقتنا .. أحيانا ننجرف و نسير مع التيار حتى لو كان الأمر ضد مبادئنا .. فنحن نبقى تحت ضغط مستمر .. و لكي نرتاح علينا ضمان تلك الأرقام .. علينا أن نتأكد أن لدينا ما نقدمه و لم نصبح مملين بعد عام أو عامين من العمل الشاق .. بدت الفكرة مثيرة و ستحصده اهتمامهم إن سارت الأمور كما أردتها .

\_إذا أعتذر إن أفسدتُ الأمر عليك .

\_لا تقولي هذا .. لا تهزئي و أنا بالفعل نادم جدا .

\_لا عليك .. لكن ألم تبدأ بهذا لأنك أحببته ؟

\_أجل بالفعل كان ذلك شغفي .

\_ ألم يعد كذلك ؟

\_ حسنا الآن أصبح عذابي .. شيئا أنا مجبر عليه و لست أفعله عن طيب خاطر .

\_ أعتقد أن المتابعين الحقيقيين سيكونون سعيدين حقا إن استمر الصدق الذي تحس به اتجاه شغفك فإن كان أمرا أنت مجبر عليه سيشعرون به و حينها سيملون منك لأنك عندها لن تختلف عن أي شخص فتح قناة و بدأ بتحميل الفيديوهات .. ما الذي يجعلك مميزا ؟ هذا أمر عليك أن تركز عليه بدل القلق حول محتوى الفيديوهات .. إجعلهم يضغطون زر الاعجاب دون أن تطلب منهم .. هل تستطيع أن تجعلهم سعداء وغير نادمين أنهم يعرفون بشأن قنواتك .. فمهما تعددت آراء البشر ومهما اختلفوا في أشياء كثيرة إلا أنهم دائما ومهما كان سيتفقون على الأمر الجيد و لن يجرأ أحد على انتقادك عندها .

\_ سأحاول العمل بنصيحتك تعلمين أن هذا ليس سهلا .

\_ أعلم أنه ليس مستحيلا .

\_ أردت أن أسأل هذا من البداية لكنني تجاهلته طويلا كي لا أذكر الأمر .. هل علمت أنه كان مقلبا ؟

\_ لقد بدى اعترافك صادقا لذا صدقت للحظة .

\_ كانت كلمات من أغنية أحبها .

\_ عرفت ذلك .. كان الأمر أصدق من أن يكون موجهها لي .

\_ أنتِ تستخفين بنفسك كثيرا .

أنا فتاة ميؤوس منها حقا لم أستطع النجاح و لم أستطع الاعتراف بالفشل و الأسوء من ذلك لم أستطع يوما الاعتراف بالنجاح , أنا ناكرة للجميل .

\_ دعني أخبرك بأمر ما .. أعلم أنني لست أجمل امرأة في هذا العالم و أنا لست أذكاهن أيضا و لست الأكثر جاذبية على الإطلاق أنا لا أحتل المركز الأول في أي شيء أعترف بهذا لكن هل تعلم لما .. لأنه لا وجود للمركز الأول .. إن سألتك ما هو أفضل لون في الألوان ستجيبني باللون الذي تفضله .. لكن هذا لا يعني أنه الأفضل .. لا أحد يمكنه الجزم لأنه لا توجد معايير لتصنيف الألوان .. إنها مختلفة تماما مثلنا نحن البشر .. لكن لا احد يعي بذلك حتى .. الكل

مرهق في محاولة بائسة ليكون الأفضل .. يتنافسون فيما بينهم طوال الوقت .. يبحث الجميع عن التميز لدرجة أن أصبح التميز في وقتنا هو أن تكون عاديا .. بسيطاً ووسطياً في كل شيء .. أنا أشفق عليهم .. أنا أشفق على الذي يمتلك كل شيء لكنه غير راض بالوضع و أشفق على الذي لا شيء له لذا ليس راض عن الوضع .. لكنني أشفق أكثر على الذين لا يملكون شيئاً لكنهم راضون بالوضع و على الذين يملكون كل شيء و بالفعل هم راضون عن الوضع .. البشر مثيرون للشفقة أنا أحزن من أجلهم .. لقد خُلِقوا فقط ليعانوا .. من الفقر و من الجوع .. من المال و من الحب .. من كل شيء سيء و كل أمر جيد .. يُعانون من الماضي و من المستقبل كما و يُعانون من الحاضر .. يُعانون من بعضهم و من أنفسهم .. لذلك لا أريد أن أحضر بشريا آخر إلى هذا العالم لأنه سيعاني .. مهما كنت أما جيدة فأنا لن أستطيع التحكم في جوعه و في مرضه .. ليست لي سلطة على عقله و لا على قلبه .. لن يمكنني كتابة مستقبله أو تغيير ماضى سيء عاشه .. أنا لن أستطيع حمايته مهما فعلت .. لأنه سيعاني كما أفعل أنا الآن .

\_ لكن أليس رائعا شعور أن يبكي عليكِ إنسان ما .. تخيلي معي .. حين تكونين حزينة سيحزن و سيتضايق .. حين تفارقينه سيدرف دموع الأسى و الندم على الأوقات التي لم يمضيها معك .. حين تمرضين يكون بجانبك مهما كان مرضك .. ألا تريدان أن تملكي شخصا كهذا .

\_ شخص كهذا لن يبكي علي فقط .. بل سأبكي عليه أنا أيضا .. و أنا لا أريد ذلك .

بعد حوارنا هذا كنتُ سعيدة لسبب ما , شعرتُ أنني وقفتُ على طاولة زفاف وسط نظرات الضيوف المندهشة و لم أشعر بأي خجل أو خوف , أنا فعلا أفكر أحيانا أن أتخطى الندم بوضع نفسي في مواقف لا أحسد عليها , فقط لأعلم إلى أي مدى ستكون النتائج سيئة علي , و هل الأمر مخيف فعلا كما يبدو أم أنني جبانة ليس إلا .

عدتُ إلى الجزائر و قابلت أُمي في المطار , و فور رؤيتها لي و بعد عناقنا و تبادل التحية شرعتُ في توبيخي كعادتها التي لن تتغير مهما قلت و مهما تكلمت أو تحملت , إنها فقط هكذا , لذا استمعتُ إليها دون أن أقاطعها .

أظني كنتُ مخطئة , أُمي لم يطلق أُمي لأنه استطاع تحملها بل لأنه أحبها , لا يهم , الأمر لم يعد مهما , فأنا لن أسمح لأي شيء أن يُعكر صفو حياتي التي أعيشها مادام الأمر بيدي , لن أكون حزينة وسط نجاحاتي التي حققتها بالفعل و لن أقلل من شأن نفسي بعد الآن , فأنا أستحق أكثر من هذا بكثير , أعتقد أني مدينة لشهر أغسطس باعتذار , لقد قللت من شأنه

هو الآخر و من الآن فصاعدا سيصبح شهري المفضل بين الاثني عشر شهر في السنة , لأنه يستحق أكثر من مجرد أن يكون آخر شهر في فصل الصيف , إنه الأكثر حرارة من بينهم لذا فهو مميز .